الفصل الثاني

قبائل وجماعات بدائية مازالت قائمة

- في إحدى جزر إندنيسيا.. مازال يعيش الإنسان الأول.
- عادة إقراض الزوجة عند الإسكيمو.
- نظم وعادات غريبة لدى بعض القبائل البدائية.
- أكل لحم البشر.. عادة لها أسباب ودوافع مقنعة!
- ..... وموضعات أخرى.

obeikandl.com

• فى إحدى جزر إندونسيا ما زال يعيش الإنسان الأول :

فى جزيرة إيريان الغربية بإندونيسيا.. من الصعب أن تصدق أن هناك مثل تلك البقعة على ظهر الكرة الأرضية فى القرن العشرين، حيث ما زال الإنسان فيها يعيش على الفطرة الأولى عاريًا كما ولدته أمه، لم يسمع شيئًا عن ركب الحضارة الذى يسير من حوله دون أن يدرى، وكأنه يعيش فى كوكب فضائى معزول عن الأرض، فقبائل «إيريان» - ولا سيما تلك التى تقيم فى أعماق الجزيرة، مثل منطقة «وامينا» - لا تزال تستخدم السهم والرمح والقوس فى الصيد والحرب، وما زال طعامهم الأساسى نوعًا من الأشجار يسمى «الساجو»، ينتزعون لبه، ويعدون منه طعامهم ممزوجًا بالسمك أو بعض اللحوم.

ويقال إن بعض القبائل بها لا تزال تمارس عادة أكل لحوم البشر[1].. ولا تزال بعض القبائل تعبد الطبيعة وأرواح الأسلاف، ويدينون بالمذهب الذى

---

(١) من الملاحظ أن الرئيس الإندونيسى «سوهارتو» قد صرح بقوله: «إن إخواننا فى إيريان يعيشون فى العصر الحجرى بطريقة تثير الخجل، وإنه لابد لنا من بذل كل ما فى وسعنا لكى نخرجهم منه».. وبالفعل تزعم «سوهارتو» فكرة تبنى أطفال من تلك المنطقة للإنفاق عليهم حتى يجدوا ما يلزمهم من النفقات للتعليم ولتكاليف المعيشة فتبنى عشرة أطفال من إيريان الغربية، كما تبنى الوزراء وكبار المسئولين حتى الآن حوالى خمسة آلاف منهم، ويحصل كل طفل من هؤلاء على نفقات التعليم والمعيشة، وذلك فضلاً عن الملايين التى خصصتها لهم الدولة فى الميزانية العامة.

يرى أن لكل شيء روحًا... وهم يعتقدون فى القوى الخارقة للطبيعة، وأن أرواح الأسلاف تعيش حولهم فى الغابات الكثيفة... ولهم نظرية خاصة عن التناسل تقول: إن الحياة الجديدة لا تولد نتيجة اختلاط الذكر بالأنثى، بل لأن أرواح الأسلاف التى يطلقون عليها اسم «ميبى» تدخل رحم الأم عن طريق سرة البطن.

كما يعتقدون أنه عندما يموت أحد الأسلاف فإن روحه أو «الميبى» تحول نفسها إلى روح تدعى «إيبو»، تاركة الجسم فارغًا لكى تحتل لنفسها مكانًا فى عالم ما وراء الطبيعة.

* * *

*** قبائل تعيش على الفطرة والعادات المتوارثة:**

* فى منطقة «سورما» بأثيوبيا[1] تعيش مجموعة قبائل ما زالت على الفطرة، إذ أنها فى عزلة عن العالم المتحضر، يقطنون فى جبال وأراض مهجورة تمامًا تمتد على طول حدود أثيوبيا مع السودان... ومن عاداتهم التى يحرصون عليها زخرفة الوجه والجسم باستخدام مزيج من «الطباشير» والماء، وفى بعض الأحيان تضاف مادة تسمى «المغرة»[2].

---

(١) الغريب أن الباحثين فى العلوم الإنسانية لا يعرفون إلا القليل عن سكان هذه المنطقة، وهم مجموعة من المترحلين، يتحدثون لغة تسمى «السرما»... ويتميز أسلوب حياتهم بالهدوء والسكينة، غير أنهم كثيرًا ما تتعرض حياتهم لهزات نتيجة نشوب حروب بينهم وبين جيرانهم، لا سيما مع عدوهم الرئيسى المتمثل فى جماعة «بومى»... وهم يعيشون على رعى الأبقار وبعض الزراعات.

(٢) هى عبارة عن أكسيد الحديديك المائى، وهو يساعد على اختفاء اللون الأصفر أو الأحمر إذا ما أضيف إلى «الطباشير»، وباستخدام بصمة الأصبع يمكن محو بعض الألوان المراد إزالتها من على الأجزاء المتقابلة مع النقوش بغية تحديد الشكل الفنى الزخرفى المطلوب.

وهذه الزخارف عبارة عن لوحات فنية على أجسام الرجال، تستخدم فى رسوماتها الخطوط العمودية والأفقية، أو الخطوط العرضية المائلة والمتداخلة، فضلاً عن أشكال حركة الثعبان الملتوية.

وتحرص النساء أيضًا على التحلى بهذه الزخارف الفنية، فتقوم برسمها على وجهها وصدرها فقط لجذب الرجال.

هذا، وتكرس هذه القبائل وقتها للرسم على الأجسام بعد حصر المحاصيل الزراعية فى شهر أكتوبر[1] حيث يزداد وقت الفراغ لديها.

ومن العادات المتوارثة أيضًا ما يسمى بـ «أطباق الشفاه»، وهو أسلوب جمالى تلجأ إليه المرأة لتزداد جمالاً وفتنة، وهو يعتمد على ثقب الشفة السفلى وإدخال طبق فى هذا الثقب، على أن يتم تغيير الطبق من وقت لآخر بطبق أكبر، وهكذا حتى يتسع الثقب بحيث يتمكن من احتواء أطباق أكبر حجمًا.

وعادة ما تلجأ النساء إلى خلع تلك الأطباق من على الشفاه عند الحديث، ومن الطريف أنه بناء على ثقب الشفاه يتحدد عدد المواشى التى يطلبها أهل العروس من العريس الذى يتقدم لطلب يدها، حيث إنه كلما اتسع حجم طبق الشفاه زاد عدد المواشى.

كما أن الأمر يتطلب من النساء ارتداء نوعية خاصة من فرو الحيوانات لتتوج الرأس، وذلك عند المشاركة فى تقديم الرقصات التى تفرضها طقوسهم!

ومن الأساليب الجمالية أيضًا التى تحرص عليها المرأة ثقب الأذن بنفس أسلوب ثقب الشفة السفلى، مع وضع سدادة فى ذلك الثقب من المعدن أو الفخار، أو طبق صغير، وهو ما يعتبر أسلوبًا من أساليب التزيُّن اليومى.

(١) يلاحظ أنهم يقومون بصفة مستمرة بتمهيد الأرض وتسويتها لإعدادها لزراعة الحبوب بأنواعها: كالذرة، والقمح، إذ تعتبر تلك الزراعات مورد رزقهم الأساسى بجانب الماشية.

ومن التقاليد والشعائر المتوارثة كذلك بين هذه القبائل حرصهم على إقامة مباريات المبارزة بالعصى، بهدف التخفيف من حدة التوتر. ولا يتخيل رجال هذه القبائل الحياة بدون هذا النوع من المبارزة، ولا بدون تلك التقاليد التى تقيس جمال المرأة ووضعها الاجتماعى بحجم الطبق الذى ترتديه فى الشفاه، كما سبق أن أوضحنا.

. . . . بجانب الاهتمام بمشغولات يدوية تسمى بـ «السرما» تتميز برسوماتها وزخارفها، فضلاً عن تطريز الثياب، ولا سيما ثياب الزواج.

* * *

obeikandl.com

• عادة إقراض الزوجة عند الإسكيمو:

لا تزال بعض القبائل الهمجية التى تعيش فى الوقت الحاضر تمارس بعض العادات التى تدل على أنها آثار عهد كانت تسوده الشيوعية الجنسية، . . من هذه العادات عادة «إقراض الزوجة» فنجد مثلا من عادة «الإسكيمو» أن الرجل منهم إذا حل به ضيف وجب عليه إكرامه، والمبالغة فى الإكرام لا تكون إلا بتقديم زوجته للضيف طول مدة الضيافة، وأن الامتناع عن هذه المكرمة أو التقصير فيها يعد عيبًا وعارًا كبيرًا.

ولا يزال أهل أستراليا الأصليون يمارسون هذه العادة إلى اليوم، ولا تزال العادة عند بعض القبائل فى شمال «روديسيا» أن يعير الرجل زوجته لضيفه.

والرجل فى «بولينيزيا» لا يسمح لإخوته بالاتصال بزوجته فحسب، بل هو يجيز ذلك أيضاً لكل رجل يساعده فى عمله.

. . وذكر بعض الرَّحَّالة أن أقزام إفريقيا لا يصطنعون أنظمة للزواج فى حياتهم، بل هم يشبعون غرائزهم الجنسية إشباعًا كاملاً بدون أى ضابط.

وفى عُرف وعقيدة كثير من الشعوب البدائية أن احتكار رجل لامرأة واحدة أمر ينافى الطبيعة، ويجافى الأخلاق الحميدة.

obeikandl.com

* **تعدد الزوجات يرفع قدر الزوج!:**

فى القبائل والشعوب البدائية يعتبر تعدد الزوجات من الأمور التى تعلى من شأن الرجل بين مواطنيه، غير أن الزواج الفردى كان عند غالبية تلك الشعوب هو الصورة الأصلية للزواج، نظرًا لأن معدل المواليد من الذكور والإناث يكاد يكون متساويًا عند معظم الأمم!

ومما هو جدير بالذكر أن المرأة فى الجماعات البدائية لا تقل قوة وجَلَدًا عن الرجل، ولا تقل عنه قدرة على الحصول على غذائها بدون مساعدة أحد، ومن ثم فهى لا تعتمد فى معاشها على الرجل.

* **بيت الزوج الحقيقي هو بيت أمه!.**

كما جرت العادة لدى تلك الشعوب البدائية أن يتردد الزوج بعد زواجه على بيت زوجته من حين لآخر، أما بيته الحقيقى فهو بيت أمه!... وإذا أنجب فإن أبناءه يصبحون ملكاً لأسرة الزوجة، ويشرف على تربيتهم خالهم الذى يعد أقرب الناس إليهم[1] حيث يعيش أبناء الأخت مع خالهم، ويعملون من أجله، ويتزوجون بناته، ويرثونه بعد مماته.

* **قبائل البوشمان[2]:**

لا يزال بعض سكان الصحارى يعيشون على الصيد وجمع الثمار البرية، ومن هؤلاء قبائل «البوشمان» حيث تبنى الأكواخ، ولكن لا تنام فيها؛ فكل ليلة يبنون مضاجع مؤقتة على الأغصان والأعشاب.

وهم لا يحتفظون بقطعان من المواشى، وإنما يعتمدون فى غذائهم على صيد الحيوانات البرية وجمع الثمار، حيث يطارد الرجال الحيوانات بالرماح

(١) قد أطلق العلماء على هذا النظام اسم الخُئُولة.
(٢) تعيش فى جنوب غربى إفريقيا، وبالتحديد فى دولة «ناميبيا».

والأقواس والسهام والعصى، وهم صيادون مهرة، حيث يستطيع الواحد منهم قتل ظبى بسهم مسموم على بعد ١٥٠ مترًا.

أما النساء والأطفال فينقبون فى التربة بحثاً عن جذور أو بصيلات صالحة للأكل، ولديهم أيضًا مهارة غريبة فى الوصول إليها.

كما عرفوا بمهارتهم فى جس مناطق المياه الجوفية فى الصحراء، وذلك بدفع قصبة جوفاء إلى عمق معين حيث المياه الجوفية، ويمصون الماء لأعلى خلال تلك القصبة، وبعد ارتوائهم ينقلون بعض الماء الفائض ويخزنونه فى صدف بيض النعام، وهياكل بعض الثمار كالبطيخ واليقطين، حين يتعذر الحصول على مياه[١].

ويلاحظ أنه فى زمن الخصب تظهر على «البوشمان» السمنة، ولكنهم سرعان ما يفقدون ذلك فى زمن القحط.

والمرتحل منهم فى الصحراء يلف رأسه دائماً بغطاء، أو يكون ملثما، وهم يستعملونه ليحولوا دون اتصال الأرواح الشريرة بنفوسهم عن طريق الأنف أو الفم كما يعتقدون.

وهناك غطاء من نوع آخر يلجأ إليه بعضهم، وهو عبارة عن طلاء أجسادهم بالزيت[٢]، ثم يتمرغون فى التراب التماسًا لنوع من الحماية من حرقة الشمس. وقد يلجأ بعضهم إلى الاغتسال مستخدمين الرمال الناعمة بدلاً من اغتسالهم بالماء الذى لا يتوافر لديهم.

---

(١) المجلة الدورية «هو وهى» الصادرة عن مؤسسة الشرق الأوسط المحدودة، عدد نوفمبر ١٩٨٠.

(٢) يقول بعض الباحثين: إن ذلك لمنع تبخر الماء تحت تأثير وهج الشمس القاتل، وندرة الماء، ولا سيما أن الإنسان يفقد كمية كبيرة من الماء من جسمه تبلغ نحو ٣,٣ من اللتر عرقًا إذا سار ساعتين فى حر الصحراء.

وهم يعبدون القمر وغيره من الأجرام السماوية، ويعتقدون فى وجود آلهة تسوق الرياح وتنزل الغيث.

ومن عاداتهم المتميزة إقامة حفلة حين تبلغ الفتاة سن المراهقة، ثم تعزل فى كوخها فترة يقدم لها خلالها غذاء خاص.

وإذا بلغ الفتى الحلم يُوشَم على جبهته العلامة المميزة للقبيلة، ثم يقضى بين الأحراج شهراً أو بعض شهر فى شظف وعزلة يتعلم فيها تقاليد القبيلة.

... وبعد أن تنقضى فترة العزلة ينتظم الفتى والفتاة فى مجتمع الكبار ويصبحان أهلاً للزواج.

هذا، وقد جرت العادة أن يتخذ الرجل زوجة واحدة، برغم عدم تحريم تعدد الزوجات لديهم.

ومن عاداتهم أيضا أن يقدم الرجل لعروسه رداءً من الجلد هدية منه عند الزواج[1].. ويقضى العروسان شهورهما الأولى فى كنف أهالى العروس وتضع المرأة الحامل وليدها فى الأحراج، ثم ترضعه ثلاثة أو أربعة أعوام، فإن رُزقت بطفل آخر قبل فطامه وأدوه!

ومن حق الأرملة أن تتزوج برجل آخر يتكفل بأبنائها، وإن ظلت بغير زواج كفلها وأبناءها شقيق زوجها الراحل.

وجدير بالإشارة أن جماعات «البشمن» تعيش حياة البداوة، وتتكون الأسرة من الزوج والزوجة والأولاد والأحفاد، وتتحد الأسرات فى عشائر

(١) يلاحظ أن لباسهم لا يزيد على قطعة من الجلد تستر عورة الرجل، وإزارين صغيرين من الجلد تشدهما المرأة حول وسطها، أحدهما من الأمام والآخر من الخلف... ويتخذ النساء والشباب والأطفال زينتهم من عقود حباتها من قشر بيض النعام، ويتكملون هذه الزينة بالوشم أو بطلاء الوجوه بمساحيق حمراء أو سوداء.

obeikandl.com

يترواح عدد أفراد كل عشيرة بين الخمسين والمائة.. ويدير شئونها أكبر الرجال سنا وأكثرهم خبرة وتجارب.

وقد يرتبط عدد من هذه العشائر فى قبيلة، إلا أن أثرها ضئيل فى نظامهم الاجتماعى ما دامت كل أسرة تحتفظ باستقلالها وحريتها.

ولكن تعتبر جماعات «البشمن» فى طريقها إلى الانقراض لحياة العزلة التى فُرضت عليهم، فضلاً عن حروب الإبادة التى تشن عليهم من الخارج.

* **جماعات «الهوتنتوت»:**

يعبدون القمر كالبشمن، وإن كانوا أقلعوا عن عبادته أخيراً، وهم يعتقدون أن من بين آلهتهم إله الشر، وهو بمثابة الشيطان، وإله الخير الذى يمدهم بالطعام، وينزل عليهم الغيث من السماء.. وأن الصراع بينهما سرمدى، وإن تكن الغلبة دائماً لإله الخير.

كما يعتقدون فى قداسة الماء نظرًا لجدب أراضيهم وما يلاقونه من مشقة فى الحصول عليه، فيحرم على من يكون من الإناث والذكور فى مرحلة الانتقال والدنس أن يمسه. ويرون فيه مصدرًا لقوة القبيلة وشدة بأسها، ووقاية للإنسان من أذى الشيطان إذا بلل به جسده، وراحة للميت إذا صُبَّ على قبره.

ومن جهة أخرى يعتقدون أن الماء يبطل قوة المشعوذ السحرية إذا اغتسل به، ولذلك لا يستحم إلا مرة واحدة فى نهاية كل عام. ويحرمون على الحامل أن ترى حيواناً يُذبح، اعتقادًا منهم بأن لذلك أثرًا سيئًا على الجنين. ومن عاداتهم المتميزة أنه عندما تظهر أمارات البلوغ على الفتاة تُعْزَل عن الناس فى كوخ مظلم ملحق بكوخ أمها، وترقد فى سكون ملتحفة غطاءً من جلد الغنم ولا تكلم أحدًا إلا همسًا، وتلازمها وصيفة، يشترط فيها أن تكون ولودًا، وموفقة فى حياتها الزوجية، وجاوزت سن الإنجاب.

ويسمح لأترابها بزيارتها، فيحقن أوراق الشحر المعطر ويغمرنها به، وبعد أن تنقضى فترة العزلة والانتقال، تكسوها الوصيفة طاقماً كاملاً من الملابس الجديدة[1] وتقودها إلى الكوخ الخارجى، حيث تكون النسوة مجتمعات لاستقبالها.

هذا، ومن واجب الوصيفة تدريب الفتاة على أعمالها اليومية، كطهو الطعام، وجمع الحطب، والتقاط الثمار، وحلب الأبقار.

وعند مغيب الشمس يحين وقت إحضار الماء، وتتقدم الوصيفة الفتاة، ومن ورائها عجوز أخرى، ومع كل من الوصيفة والفتاة جرَّتها، ويَسِرْنَ فى صف واحد، حتى إذا بلغن نبع الماء تمسك الوصيفة بغصن شجرة وترش به الماء على الفتاة، وتدلك ساقيها بالطين، وأخيرًا تضرب كل منهما صفحة الماء بغصن الشجرة، ثم تملأ الوصيفة جرة الفتاة ماءً وتضعها على رأسها، وكذلك تفعل بجرتها هى، ويَعُدْنَ إلى الكوخ، وعندئذ تصير الفتاة صالحة للزواج والإنجاب!

ومن عاداتهم أيضًا ألاَّ يقابل الشاب فتاته إلاَّ عن طريق وسيط، ويرتب والداهما أمر الزواج.

وفى يوم الزفاف يقدم كل من العروسين بقرة لحماته اعترافاً بفضلها عليهما. ويقام الحفل فى كوخ والد الزوج، ولا يُدعى إليه إلا المتزوجات، وهناك يعرفن الزوجة التى انضمت إلى مجتمعهن.

هذا، ويبالغ الزوج فى إظهار الاحترام لحماته، وإكرامها، فيقابلها على استحياء، ويغض الطرف عند التحدث إليها.

---

(١) تتكون ثياب المرأة من ستر مزركش، فوقه لباس مرسل من الأمام والخلف، وقلنسوة جلدية لغطاء الرأس، ونعل، وتزين جيدها بحلى من القواقع، وساقيها بشرائط من الجلد.

وجدير بالإشارة أن للزوجة قسطاً كبيراً من الاستقلال، فهى سيدة الكوخ، ومالكة أثاثه، وهى التى تحلب الأبقار، وإن أراد زوجها بعض اللبن[1] طلبه منها، ولكنها تورث بعد موته وتئول إلى شقيقه.

وتطيل الأم فترة إرضاع طفلها مالم تحمل مرة أخرى، ويُنسب الولد إلى أمه، والبنت إلى أبيها... ويهدى الوالدان كل طفل بقرة يتغذى على لبنها.

ومن تقاليدهم الطيبة أن يوقر الصغار الكبار ذكوراً وإناثاً، وإجلال المسنين وتقديرهم البالغ. هذا، ويلاحظ أن شعب «الهوتنتوت» يهدده الانقراض من تحت تأثير المسكرات والأمراض السرية، ولاختلاطه الجنسى بغير الأفارقة[2].

* * *

* **قبيلة أرابش:**

على سفوح الجبال تعيش هذه القبيلة، ويسود التعاون بين أفرادها، فلا يعمل الفرد لنفسه، بل يعمل من أجل الجميع.

وهم يجتمعون كل مساء فى منزل أحدهم، حيث يتسامر الرجال ويغنون، وتطهو النساء، ويلعب الأطفال.

والمرأة عندهم أصلب عوداً من الرجل وأكثر منه قوة؛ ولذلك تقوم بحمل الأحمال الثقيلة.

---

(١) يعتبر اللبن غذاءهم الأساسى، وتقوم النسوة بحلب الأبقار وحفظ اللبن فى آنية من الخشب حتى يغلظ ويتكثف ثم يتغذون به مع بعض الخضر.
أما لحوم دوابهم فلا يأكلونها إلا فى الولائم والمناسبات، ولعل مرد ذلك قلة الحيوانات لديهم.

(٢) جنوب إفريقيا: حسن محمد جوهر، من «سلسلة شعوب العالم» (بتصرف).

ويشترك الأب مع المرأة فى تربية الأطفال، فهو مسئول عنهم مثلها تماما وذلك خلاف القبائل الأخرى[1].

وأفراد هذه القبيلة يعتقدون أنهم لا يملكون الأرض، بل هى التى تملكهم، وعندما يريد أحد غرس حديقته يقوم الجميع بغرسها معه.

ولا يقتصر هذا التعاون على الحدائق فقط، بل يتعداه إلى زراعة الأشجار والصيد... فالرجل لا يخرج بمفرده للصيد، بل مع الجماعة... وعلى هذا لا يستطيع الرجل فى هذه القبيلة أن يفكر فى خطة ويقوم بتنفيذها؛ لأن تسعة أعشار وقته يضيع فى تنفيذ خطط الآخرين، ومن النادر جدا أن يقترح أحدهم فكرة تخصه وحده.

أما الحرب فلا يعرفها أفراد هذه القبيلة، ولكن هذا لا ينفى وجود بعض المناوشات من حين لآخر، وغالبًا ما تكون بسبب النساء.

فإذا غادرت امرأة بلدتها وكانت مخطوبة أو متزوجة اعتبرت هذه إهانة للبلدة التى تركتها، ووجب الانتقام، وذلك برد الإهانة بمثلها!

إنه مجتمع لم يتعود العنف، ولم يعرف إلا الرقة والهدوء والتعاون... كما لا يوجد فيه ذلك الرجل الذى يميل إلى الزعامة، فمن صفات الزعيم أن يتكلم بصوت مرتفع، وأن يفاخر بما قام به فى الماضى، ويعتز بما سيقوم به فى المستقبل، وهذه صفات رجل شاذ فى نظرهم!

---

(١) فى قبيلة «أرابش» يسلك الرجال والنساء السلوك المعهود فى النساء، ففيهم رقة ولين، كما أنهم يميلون إلى العطف والهدوء.. فى حين فى قبيلة أخرى كقبيلة «موندجومور» يسلك الرجال والنساء مسلك الخشونة والغلظة.. أمَّا قبيلة «تشامبولى» فيسلك الرجال مثلما يسلك النساء، حيث يصففون شعورهم، ويتحلون بالحلى، بينما النساء لا تتزين، وهن أكثر نشاطا، كما أنهن القادة دائما.

من هنا نرى أن خصائص الرجال والنساء ليست نتيجة اختلاف الجنس، بل هى انعكاس لأفكار ومعتقدات وعادات قد ألفوها.

ولاختيار الزعيم يقسم الأولاد فى مرحلة المراهقة إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: تضم ذوى الآذان المفتوحة التى تسمع، وتفهم، وتتكلم، وهم طبقة الموهوبين.

المجموعة الثانية: وهم الذين يسمعون، ويفهمون، ولكنهم لا يتكلمون، وهؤلاء هم طبقة الحكام الخجولين.

المجموعة الثالثة: وهم قسمان، ذوو الآذان المغلقة الذين يتكلمون وذوو الآذان المغلقة الذين لا يتكلمون. وهذان القسمان لا فائدة منهما للمجتمع.

وتختار القبيلة شابا من المجموعة الأولى يطلقون عليه لفظ «البديل».. ثم يختارون شابا آخر ـ له نفس المميزات من قبيلة أخرى... وكلما تقابل الشابان تبادلا الشتائم والإهانات؛ وذلك لتنمية روح التنافس والعدوان بينهما... كما أن العلاقة بينهما تمهد لظهور الزعيم الذى يجب أن يتصف بالقسوة والغلظة... تلك الصفات التى يمقتها الفرد العادى! وكثيرًا ما يقاسى الشاب من ضغط الكبار، ومن إثارة البديل الآخر، وهذا لكى يكون زعيمًا. كما أنه يكون مسئولا عن تنظيم الاحتفالات؛ ولذلك فقليل منهم يخضع لهذا الضغط، فيتعلم كيف يغضب، وكيف يزرع حديقته الخاصة، ويكون جماعات الصيد، ويكون هو المسئول عن وضع الخطط لعدة أعوام.

ويستطيع الزعيم أن يعيش فى هدوء ودعة، يرشد أبناءه، ويعلمهم، ويمهد لزواجهم، وهذا بعد أن يصل ابنه إلى مرحلة البلوغ.

*** العوامل التي تكون شخصية أرابش:**

يتسم المحيط الأُسْرى للطفل فى قبيلة أرابش بعاطفة الأمومة والحنان الزائد، فهم ينظرون إلى بكائه على أنه مأساة لا بد من تلافيها بأى وسيلة!

والطفل مع أمه دائماً لتلبى له رغباته... وما إن يبدأ الطفل فى المشى حتى يتغير نظام حياته، فتتركه الأم فى بعض الأحيان مع أبيه، أو مع أحد الأقارب، وتذهب للتسوق، وعندما تعود فتجده باكيًا ترضعه لمدة ساعة أو يزيد.

وإذا حدث أن غابت الأم عن طفلها يومًا كاملاً، فإنها تكرس اليوم التالى له كله ترضعه، وتهدهده وتداعبه؛ ولذلك يكون وقت الرضاعة من أمتع الأوقات للأم والابن، وهذا بالطبع يؤثر فى شخصيته ويجب ألا ننسى أن الأم ترضع ابنها حتى سن الثالثة!

وتؤثر هذه العناية فى الطفل، فيأكل طعامه فى رضًا ويعطف على الحيوانات والضعفاء، ويرحب بكل إنسان، ويتعلم كيف يحب كل شخص ولا يكره أحدًا، وينظر إلى كل من حوله على أنهم أقاربه، لا فرق بينهم إطلاقًا.

ولا يوجد فرق بين الجنسين فى السلوك.. فالفتيات يلعبن مع الأولاد... وهم لا يرتدون أى ثياب حتى سن الرابعة أو الخامسة؛ ولذلك فهم يقبلون اختلاف أعضائهم الجنسية بدون حرج، فيشبون على علم بطبيعة تكوين أجسامهم... ولا يظل الطفل ملازمًا لوالديه عندما يكبر، بل تستطيع العمة مثلاً أو الخالة أن تأخذ الطفل الذى يبلغ أربع سنوات عندها لمدة بضعة أيام أو أسابيع، وهذا ينمى فى الطفل شعورًا بأن العالم كله مملوء بالآباء والأمهات، وبالتالى مملوء بالحنان والرحمة، فتتسع دائرة ثقته بدون تعميم عواطفه، بمعنى أنه لا يخلط بين أمه وأبيه وبين باقى أقاربه، بل هو يرى أمه وأباه أكثر من باقى الناس، ثم يأتى أعضاء القبيلة الآخرين فى المرتبة التالية. ويجب أن نعلم أن الطفل من قبيلة «أرابش» يلبى دعوة أى شخص يعتنى به، أما الكبار فلا يتعجلون نمو الطفل، ولا يهتمون بتعليمه أى حرفة أو صناعة،

وبذلك ينمو الطفل شاعرًا بالأمن؛ لأنه فى حماية الآخرين، ولأن لديه القدرة على إخضاع البيئة. . . والرسم هو العمل الوحيد الذى يتقنه الفرد!

ولا يسمح للأطفال بالتشاجر عندما يلعبون، فللطفل إذا غضب أن يصرخ أو يلقى بالحجارة، ولكن على ألاَّ يمس الطفل الآخر بأى أذى. . . فهو يتعلم ليس فقط أن يكبت انفعالاته ويتحكم فيها، بل أن يعبر عنها بحيث لا يؤذى هذا التعبير أحدًا[1]!.

أما البنات فلا بد من كبت التعبير عن الغضب عندهن، وذلك فى وقت مبكر.

وتعمل القبيلة على الحد من نوبات الغضب عند الأطفال حين يكبرون، فهم لا يلعبون ألعاباً تشجع على العدوان، أو تحرض على المنافسة: فمثلاً لا يوجد عندهم سباق أو ألعاب يشترك فيها فريقان، وألعابهم تشبه ألعاب رياض الأطفال، كأن يجتمعوا للغناء أو الرقص فى الأعياد.

وهناك اختلاف واضح بين حياة الأولاد وحياة البنات فى الجماعة: فالبنات الصغيرات يعملن على جمع الطعام، وحمل الأطفال، وحمل الأخشاب وإشعال النار. . . فما إن تحل الأعياد حتى تجتمع الفتيات للعمل معًا طول اليوم، أما الأولاد فيصحبون آباءهم أو أخاهم الأكبر عند الخروج للصيد. . . وعندما لا تكون هناك مثل هذه الرحلات يجتمع بعض الصبية ويتمرنون على الصيد برمح أو سهم يصنعونه بأنفسهم كلعبة لصيد ثمار البرتقال، ويكون اجتماعهم مع من فى مثل سنهم من أسعد أوقاتهم.

وعلى الولد عندما يبلغ سن المراهقة أن يراعى بعض القوانين الهامة، وذلك عندما تظهر عليه علامات البلوغ، فلأ يأكل لحمًا معينًا، ولا يشرب

(١) فالأولاد يصرخون، ويرتمون فى الوحل حتى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة بدون أن يشعروا بأدنى خجل.

الماء البارد لمدة عام . . . ولأول مرة يلتفت المراهق إلى طبيعة الجنس، ودائماً ما يحذر المراهق من اللعب بأعضائه التناسلية، كما كان يفعل أيام الطفولة.

ولن يعاقب المراهق إذا خرج على هذه القوانين، ويكفى أنه يعلم أن ذلك يؤثر عليه كرجل سيكون أباً. . . ويبدأ المراهق يدرك الفرق بين وظيفته كرجل، ووظيفة المرأة فى إنجاب الأطفال والعناية بهم.

وقبيلة «أرابش» تؤمن بالسحر. . . وعندهم فى الأعياد ما يسمى «تامبرام»، وهو رجل أو أكثر يحملون معهم آلات موسيقية تصدر أصواتًا معينة، ولا يسمح للنساء ولا للأطفال الذين لم يبلغوا بعد برؤية هذا الموكب.

ثم يأتى وقت يقدم فيه الولد إلى المجتمع فى احتفال كبير، وأسس تقديمه للمجتمع واحدة فى جميع الحالات. . . فيعزل البالغ عن صحبة النساء، ويتبع عادة عدة قوانين تتصل بالطعام، ويشرط فى بعض أجزاء جسمه بآلة حادة، ثم يتناول وجبة من الطعام يضحى بها الرجال الأكبر سنا. . ويتعلم فى هذا الاحتفال أشياء كثيرة. . . «فالتامبرام» ليس سوى بضعة أصوات.

ويهتم الآباء بأولادهم كثيرًا، ويتخذ كل ولد له أبًا روحيا يخرج معه دائمًا، ثم يقيم له الوالد بعد ذلك وليمة. . . فهذه المرحلة فى نظرهم امتداد سحرى للنمو، ويهتمون جدا بصحة البالغ، حتى إن كثيراً منهم يُصابون بالسمنة، وهناك تعليمات تصدر إلى البالغ: فلا يكره، ولا يحتقر، ولا يخاف النساء.

وبعد ذلك يُقام احتفال آخر لاكتشاف ما إذا كان البالغ قد مارس اتصالا جنسيا، فإذا ثبت أنه مذنب يعاقب، ويَحْذَرُ الآخرون من إتيان هذا الفعل، فالجنس شىء خطير للذين لم يكتمل نموهم بعد. . . ويعتقدون أن الاتصال الجنسى يوقف النمو الطبيعى قبل البلوغ!!

وبعد شهرين من الاحتفالات يظهر البالغ بالملابس الفاخرة، ثم يقوم مع أبيه بزيارة أقاربه، ويعطى هدية من كل منزل يزوره، وبهذا تنتهى فترة طفولته، ويصبح مسئولاً عن أبويه اللذين ربياه، وعن إخوته الصغار، وعن خطيبته... وهكذا ينسحب الأب تاركاً الميدان لابنه!

* **نمو الفتاة وخطوبتها فى قبيلة «أرابش»:**

ما إن تبلغ الفتاة فى هذه القبيلة سبع أو ثمانى سنوات حتى تكون مخطوبة لولد يكبرها بست سنوات تقريبًا، فتذهب لتعيش فى منزله مع والديه وإخوته... ويشترك الجميع فى تربيتها، وكل ما يفعله الخطيب المراهق هو الاهتمام بالزرع والحيوانات حتى يستطيع إطعام الخطيبة، فليس هناك مهر، ولا يعتبرها شرعيا من ممتلكاته... وينتظر الخطيب من خطيبته الطاعة والإخلاص؛ لأنه أطعمها وساعد على نموها.

وعندما يموت الخطيب وتُخطب الفتاة إلى آخر لا تكون الرابطة بنفس القوة؛ ولذلك لا يستقر الزواج فى هذه الحالة.

ومجتمع «الأرابش» ينظر للزواج على أنه وسيلة من وسائل زيادة أفراد العائلة؛ ولذلك يراعى الأب عددَ أخوات الخطيبة عند اختيارها لابنه.. فكلما كثر عددهم كانت أصلح.

ويشترط كذلك فى الفتاة أن تكون نشطة، كريمة، تسعى لخدمة الضيوف وتعتبر مسئولة عن راحتهم، وهذه الصفات أهم من الجمال أو الذكاء. والفتاة فى هذه القبيلة لابد أن تتزوج مرة على الأقل، إلا إذا كانت مشوهة بدرجة كبيرة... وشعورها نحو زوجها وإخوته كشعورها نحو أخواتها وأبيها.

وعندما يقترب بلوغ الفتاة تشدد الرقابة عليها من جانب والدى زوجها. فهم يخافون من الاتصال الجنسى بينها وبين الخطيب، حيث على الخطيب ألاَ يتصل بخطيبته حتى تمر فترة طويلة تبلغ أحياناً سنتين بعد بلوغها. وإذا لوحظ أن الفتاة تنضج بسرعة ولم ينضج الابن بعد، فإنهم يلجئون إلى السحر، أو يضطرون لإعطاء هذه الفتاة إلى أخ أكبر، ومن ذلك نرى أن الفتاة غالبًا ما تكون لمجموعة من الأفراد وليست لرجل واحد فقط، فهى قد أصبحت جزءًا لا يتجزأ من العائلة.

ثم يقام احتفال يقوم فيه الخطيب بإعداد طعام الخطيبة، وتلبس الفتاة ثياباً جديدة، وتظهر أمام زوجها وإخوتها، ويقدم لها كل منهم هدية، كأطباق خشبية، أو خناجر، أو سهام، أو حقائب... وهذه هدايا مناسبة للعروس... وبهذا الاحتفال تنتهى حياة الطفولة للفتاة، وهو يختلف عن الاحتفال الذى ينهى حياة الطفولة بالنسبة للأولاد.

وبعد الاحتفال تستمر الرقابة عليها عدة شهور قد تصل إلى سنة، ثم تخف الرقابة ويسمح لهما ـ بعد أن يكونا قد نضجا ـ بالخروج معاً حتى يتم زواجهما.

* * *

* **قبيلة «موندا جومور»:**

تختلف هذه القبيلة كثيراً عن القبيلة السابقة.. فالرجل فيها يعيش بمفرده، ولكل زوجة من زوجاته منزل، ولأولاده كوخ حقير، أما هو فله منزل خاص به، ودائماً يعيش أفراد هذه القبيلة فى شجار وقلق، ويقوم مجتمعهم على أساس العداء الفطرى بين أفراد الجنس الواحد!.. فالأخ ينظر إلى أخيه نظرة ارتياب، ومنافسة، وعدم ثقة؛ وهذا يرجع إلى أن الرجل مثلاً لا يستطيع أن

يحصل على زوجته إلا إذا استبدلها بأخته التى تصبح زوجة لوالد زوجته أو أخيها؛ ولهذا تجد المنافسة بين الإخوة، وخصوصًا إذا كان عدد الأخوات قليلاً؛ فكل منهم يريد أن يكون هو الفائز!

ويشتد التنافس لأن الكبار فى استطاعتهم الحصول على زوجات شابات، ومن هنا يحدث الصراع والتنافس بين الأب والابن، فبدلا من أن يسمح الأب لابنه بأن يستغل أخته بديلة لزوجته، يستبدل هو بابنته المراهقة زوجة شابة!... والأب ينظر إلى ابنته على أنها ملك له تتبعه فى كل شىء، أما الأم فتحس هذا الشعور نحو الابن، فالوالد يكره ابنه لمجرد أنه من جنسه... وهكذا نجد الأعداء يزدادون حول الرجل ممثلين فى الزوجات والأولاد..

أما الزعيم عندهم فهو الرجل الذى يمتلك عددًا كبيرا من الزوجات، وبالتالى يكون غنيا، وهو الذى يقوم بالاحتفالات لتقديم الأولاد للمجتمع.

وهذه الاحتفالات ليس لها نظام، بل تسير على أهواء الزعيم... أما الفتيات فلهن مطلق الحرية فى اختيار تقديمهن للمجتمع.

ويرجع العداء وعدم الثقة بين أفراد هذه القبيلة إلى أنها غنية، ويمتلك أعضاؤها أراضى كثيرة... كما يصطادون كميات كبيرة من السمك، ويزرعون الدخان... وهذا المستوى الاقتصادى لا يحتاج فى الواقع إلى تعاون بين الأفراد.

*** نمو الفرد في هذه القبيلة:**

يولد الطفل الذكر فى عالم لا يعرف التعاون ولا المحبة، عالم تسوده الخلافات والمنافسات والصراع... ولكى ينجح الفرد لا بد من أن تكون له القدرة على السلوك العنيف، وعلى إدراك الإهانة وردها.

وقبل الميلاد يشعر الوالد والوالدة نحو الطفل بالعداء!!.. فالأب يقلق لأن الولد سيكون منافسًا له!.. والأم تقلق إذا كان الطفل أنثى؛ لأن الفتاة تعتبر كسبًا للأب لا للأم!

ومن هنا نتأكد أن الطفل يقاسى منذ مولده: فإذا بكى لا ترضعه أمه مباشرة، وحينما ترضعه لا تضعه فى وضع مريح... وكذلك يوضع الطفل فى سلة جافة، فيظل يبكى ويصرخ حتى يخرج منها!!... وإذا بدأ فى المشى يحرم عليه التجول بعيدًا حتى لا يغرق فى النهر... كل هذه الأمور تكون لدى الطفل أول شعور بأن العالم الخارجى مملوء بالخطر وعدم الاطمئنان.

وهناك بعض الاختلاف فى المعاملة بين الولد والبنت: فالبنت تتعلم منذ الطفولة أنها مرغوب فيها، ويعتنى بها أكثر من أخيها... وأول درس يتلقاه الطفل يتمثل فى التحذيرات: فلا يبكى، ولا يخرج بعيدًا عن البيت، ولا يذهب إلى بيوت زوجات الأب، وعليه أن يعامل كل مجموعة من أقاربه معاملة خاصة... وعلى هذا يعتقد الطفل أن فى العالم علاقات كثيرة مختلفة، ويظهر هذا أيضًا فى اللعب... فالأولاد يتنافسون على الفوز، ويُظهر كل منهم مهارته، وكذلك نجد أن الأولاد والبنات لهم الحق فى مشاكسة الصغار، وفى إهانة الأب أو الأم، وفى تحقير من هم أكبر منهم سنا!

أما البنات فلا يسلكن كالأولاد، فليست لهن مجموعات كالأولاد، كما أنه ليس هناك تحفظ وجفاء بين الأخوات، وتوجد علاقة متينة بين الفتاة ومن ستحل محلها فى المنزل... والفتيات الصغيرات يتبعن أخواتهن الكبيرات، ويقلدن سلوكهن.

والبنات والأولاد يتعلمون منذ الصغر الاعتماد على النفس، ومقابلة القوة بمثلها، وتقرير الحرية الشخصية... فالولد الذى يبلغ من العمر سبع سنوات

يتحدى أبويه ويترك المنزل. . . وحين تقترب الفتيات من سن المراهقة يراقبن بشيء من الغيرة والرقة، مما يضايقهن كثيراً، ولكن برغم الخلاف بين الأولاد والفتيات فلا يوجد خلاف بينهم من ناحية المزاج، فنجد أن الفتاة تتصف بالعنف والميل إلى العدوان والحقد مثل الولد، ولكنها ليست فى مثل قوته الجسمية. والشباب فى هذه القبيلة يفضل اختيار الزوجة بدون تدخل الآخرين، وكذلك الفتاة لا تقبل أن يختار لها أحدٌ زوجَها؛ لذلك يراقبها أبوها مراقبة شديدة، ويجبر ابنه على النوم خارج المنزل إذْلاَلاً له.

وتتفق قبيلة «أرابش» مع هذه القبيلة فى أن الاتصال الجنسى قبل البلوغ يوقف النمو، مع أنهم فى الواقع يدفعون أبناءهم نحوه!! وإذا حدث خلاف بين الزوج والزوجة المراهقين يهرب أحدهما ليبحث عن شريك آخر!

وهكذا نجد مجتمع «موندا جومور» لا ينظر للنساء كمخلوقات ضعيفة، كما أن الأطفال ليسوا عاملاً للربط بين الوالدين. . . والعداء والشراسة والمنافسة قائمة بين الجميع!.

* * *

* **قبيلة «تشامبولى».**

هذه قبيلة تعيش للفن، فكلهم فنانون. . . ومعظمهم يتقن أكثر من نوع من أنواع الفن، كالرقص، والنحت، والتصوير، وغير ذلك. أما النساء فيقتصر اهتمامهن بالفن على المشاركة فى الرقص، وبعض الرسومات البسيطة.

والرجال فى هذه القبيلة يعتمدون على النساء، فالطفل يعتمد على أمه منذ الطفولة، وبذلك لا تتركه وحيداً أبداً، وتصحبه معها أينما ذهبت. وفى سن الثامنة يبدأ فى الذهاب إلى الاحتفالات، ولكن الجميع لا يهتمون به، فما

زال صغيراً، ولكن ما إن يتعدى الثانية عشرة حتى تُقام الاحتفالات ويُمَيَّز بعلامات فى جسمه... ولا يلتفت إليه أحد أيضًا، بل يهتمون بالاحتفالات... ويراقبه أبوه وإخوته الكبار بحقد وهو ينمو ويدخل فى طور الرجولة، ويلاحظون سلوكه نحو زوجاتهم ويشكون فيه إذا مر من ممرات النساء.... وتقوم النساء باختيار زوجته (١٠:١١سنة) من بين أقارب أمه...

وحين تتزوج الفتاة تذهب إلى بيت أقاربها، وتندمج مع النساء فى العمل، حيث يشعرن بالسعادة، أما الرجال فيشعرون بالحقد والكراهية والحذر عندما يجتمعون.

وعندما ينمو الطفل يجد نفسه فى عالم متناقض... ثم يتعلم العزف على بعض آلات الموسيقى.. وإذا كان محبوبًا تزوج بأكثر من واحدة.

... والنساء يتمتعن بالمركز الأقوى برغم أن الرجل يدفع ثمنًا لهن!

...ويقوم الرجل بالتسويق... ويملك الرجل ما يأخذه من زوجته، ويعتبر نفسه مالكاً حقيقيا نظير معاملتها معاملة طيبة، واتجاه النساء نحو الرجال هو اتجاه الشفقة والاستحسان على سبيل الترضية.

وحياة النساء لا تعترضها أى منغصات أو خلافات، بعكس حياة الرجال، فمن بين خمسين معركة بين الرجال لا نجد واحدة بين النساء؛ وذلك لعدم وجود فراغ!.. فهن يعملن بدون توقف، ويقمن الحفلات التى لا يحضرها الرجال... ومن هنا يتبين أيضًا عدم أهمية الرجال فى مجتمعهن.

أما الشباب فالتنافس بينهم شديد، ذلك لأن الفتاة هى التى تختار زوجها... فيمر الشباب بفترة قلق واضطراب، ولا يثق أحدهم فى الآخر.. والرجال يحسون بالغيرة والحقد نحو الشباب، سواء كانوا إخوتهم الصغار

أو أبناءهم؛ وسبب هذه الغيرة هو أن الشباب يلفت نظر النساء مما يغيظ الرجال ويوغر صدورهم.

وكثيرا ما يوجه الرجال بعض الاتهامات إلى الشباب أمام زوجاتهم الشابات: كأن يقول الرجل إن الشاب يتيم، مما يقلل الفرص أمام الشاب عند الزواج!... وهكذا يناضل الشباب والرجال لكسب النساء... ومن هذا يتضح أن النساء هن المسيطرات فعلاً فى هذه القبيلة.

وحتى يبلغ الأطفال سن السادسة أو السابعة يعامل الأولاد والبنات معاملة واحدة... وتتعلم البنات فى هذه السن بعض الحرف الصغيرة ويشتركن فى مسئوليات النساء.

أما الولد فيترك على هامش المجتمع، فمنذ صغره تتكون عنده مشاعر تلازمه، كأن يشعر بالإهمال وعدم الأهمية، وبذلك عندما يكبر يصبح رجلاً سريع الإحساس بالإهانة، ويصير سريع الغضب.

من هنا نجد أن الطفل ينشأ فى جو متناقض غريب: فالمرأة تدير النواحى الاقتصادية، والاحتفالات تقام للنساء. والفتاة تختار زوجها، والمجتمع يقول للزوج أن يحكم زوجته فى الوقت الذى يرى فيه أن المرأة تحكمه وتحكم أباه وأخاه... ومن هنا كان الصراع[1].

* * *

* **قبيلة «ميلبا»[2]:**

تعتبر قبيلة «ميلبا» من أهم القبائل الإفريقية البدائية التى اشتهرت منذ القدم بحفلات التبادل التجارى التى تحييها، وتعرف باسم «موكا»، فحين يحاول التاجر تحقيق ربح من تجارته يمنح شركاءه التجاريين فى هذه الحفلات أكثر

(١) الحياة والجنس فى المجتمعات البدائية: مرجريت ميد (بتصرف).
(٢) قبيلة «ميلبا» فى غينيا الجديدة، وتضم سبعين ألف شخص.

مما يأخذ منهم... فلا قيمة للثروة فى نظر أهل هذه القبيلة سوى كونها يمكن توزيعها على الآخرين، بحيث يشعرون أنهم مدانون لصاحبها، فتزداد أهميته ومكانته بينهم، ويلبون حاجته إذا احتاج إلى شىء، وينظرون إليه على أنه شخصية مهمة، أو «بيج مان» على حسب تعبيرهم.

ويطمح كل رجل فى قبيلة «ميلبا» لأن يصبح «بيج مان» يملك العديد من الصدف، والريش، والزوجات.

ولا تكفى الثروة وحدها، ولا حتى توزيعها عن آخرها لحصوله على هذا اللقب، إذ يجب عليه أن يعيش سنة كاملة فى الغابة تحت رعاية «أستاذ» يعلمه كيفية التغلب على الوحدة، والجوع، والخوف، والأخطار، والرغبات.

وبعد أن يصبح الرجل «بيج مان» يتوقعون منه إقامة احتفالات التبادل التجارى، وقضاء حاجات المجتمع.

ويستعد الرجال لهذه المناسبة بوضع اللحى والشوارب المستعارة، وصنع قبعات من لحاء وبذور الشجر، يشبه شكلها شكل قبعات القراصنة السوداء، وبوضع «الماكياج» على وجوههم فى عملية طويلة معقدة تستمر ما بين أربع وست ساعات، يصبح وجه الواحد منهم فى نهايتها أشبه بالقناع الأبيض والأسود، بعد دهنه بالزيت، ووضع الفحم المطحون والجير الأبيض عليه فى تشكيلات غريبة يتعلمونها أبًا عن جد، ويساعد الواحد منهم غيره فى رسمها.

أما النساء فيدهنَّ وجوههن باللون الأحمر[1]، ويرسمن نقاطًا بيضاء حول العينين والأذنين. وتعمد النساء والرجال إلى وضع قطعة مستديرة من

(١) أثارت البحوث الأنثربولوجية أن الألوان المستعملة فى تلك القبيلة ترمز لأشياء معينة، فاللون الأحمر هو لون الخصوبة، ويخصص بالتالى للنساء، أما اللون الأسود فهو لون الرجولة فى حين يمثل اللون الأبيض الموت.

الصدف أو العظم فى أنوفهم لإظهار علو مكانتهم فى المجتمع[١].

وإذا كانت قبيلة «ميلبا» قد اشتهرت بزهاء الألوان التى تتزين بها عند الاحتفالات، فإن قبيلة «تشمبو»[٢] قد اشتهرت بالرجال «الضفادع»، أو الرجال «الطين» الذين يظهرون فجأة وقد دهنوا أجسامهم من قمة رأسهم حتى أخمص أقدامهم بالطين الرمادى اللون.

وهم يعتبرون أنفسهم حماة القبيلة، إذ يرعبون الأعداء بشكلهم المخيف بعد أن يضعوا الأقنعة الطينية الضخمة التى تغطى رءوسهم وتصل حتى أكتافهم، ويطيلون أظفارهم بإلصاق عيدان الخيزران المطلية بالطين عليها[٣]. وما زال ظهور هؤلاء الرجال يثير الذعر حتى اليوم بين أفراد القبائل المجاورة. . .

أما قبيلة «بابوا» بغينيا الجديدة أيضًا. . . فقد ظلت تستخدم أسلوب الرعب للذين يقتربون من منطقتهم، ولا سيما المكتشفين، فظلت مجهولة حتى عام ١٩٥٠.

أمّا أسلوبهم فى الرعب فكان يتمثل فى اصطياد البشر وقطع رءوسهم لأكلها، والاحتفاظ بجماجمهم.

---

(١) مجلة الشرق الأوسط فى عددها الصادر فى ١٠/٧/١٩٩١ (بتصرف).

(٢) تعيش فى منطقة الجبال الوسطى بغينيا الجديدة.

(٣) ولرجال الطين قصة مفادها أن قبيلة «تشمبو» كانت فقيرة صغيرة، طالما استضعفتها القبائل المجاورة، فغزتها واستولت على ممتلكاتها، ودمرت قراها، واقتلعت مزروعاتها. . . وفى أحد الأيام سقط أحد رجال القبيلة أثناء معركة مع قبيلة مجاورة فى المستنقع القريب، ولم ينتبه إلى سقوطه أحد.

وبعد فترة نجح الرجل فى تخليص نفسه، وحين شاهده الأعداء خارجًا من المستنقع وقد اختفى جسده تحت طبقة من الطين ظنوه روحًا شريرة جاءت تثأر منهم، فدب الرعب فى قلوبهم وفروا هاربين، ومنذ ذلك اليوم أصبح الرجال الذين يقع عليهم الخيار للدفاع عن القبيلة يقلدون شكل ذلك الرجل، ويظهرون فجأة أمام الأعداء مؤدين حركات بدون إصدار أى صوت سوى ذلك الناجم عن أعواد الخيزران الملصقة على أظفارهم.

فقد اعتقد أهل «بابوا» أن رأس المحارب هى موطن شجاعته، وأن الشجاعة تنتقل إلى من يأكل من ذلك الرأس أو يحتفظ بجمجمته[١].

وكذلك اعتقدوا أن ازدياد قوة المحارب وشجاعته تزيد من فحولته، مما يفسر حث النساء والفتيات الرجال على ممارسة الحرب وقتل الأعداء.

وقد بلغ من خوف الأجانب من أهل هذه القبيلة أن أطلقوا عليها اسم «وطن الأشرار».. وبرغم اختفاء هذه العادة اليوم، فإن الرقصات الشعبية والأغانى الحماسية التى كانت تصحب ممارستها ما زالت موجودة حتى الآن.

وفى منطقة جبل «هاجن» الوسطى بغينيا الجديدة توجد عادة تقديم الهدايا لأهل العروس، ففى اليوم المحدد تصل قبيلة العريس حاملة معها الهدايا.. وهى عبارة عن أصداف وعدد من طيور «الكاساوارى»[٢] وكمية من الأوراق النقدية التى يلصقونها على لوح خشبى ضخم.

ويفرد أهل العريس هداياهم على الأرض فى الهواء الطلق، فتأتى قبيلة العروس وتتجول بينها حتى تقرر ما إذا كانت ستقبلها أم لا، فإذا ما أعجبت الهدايا قبيلة العروس أخذتها، وكان ذلك إيذانا بالموافقة على الزواج.

والغريب أن الهدايا لا تذهب إلى أهل العروس، بل توزع على جميع أفراد القبيلة... وأن المهم فى الزواج ليس جمال العروس أو عمرها، بل أهمية قبيلتها؛ لأن الهدف الأسمى هو توثيق العلاقات التجارية بين القبائل المختلفة[٣].

* * *

(١) المرجع السابق (بتصرف).
(٢) هى طيور ضخمة تشبه النعامة.
(٣) المرجع السابق (بتصرف).

* **قبيلة «المولو»:**

فى قبيلة «المولو» يعد صيد «فرس البحر» أمرًا أساسيا وجوهريا فى حياتهم[1]، حيث يكنُّون احترامًا كبيرًا لهذا الحيوان الضخم؛ ولذا فهم لا يقتلونه من أجل الحصول على مكاسب مادية، بل من أجل حاجاتهم الغذائية، ومن أجل طقوسهم السحرية الغريبة.

وتتم عملية الصيد فى جنح الظلام بعد وضع الخطط اللازمة للاقتراب من أماكن تواجده، لتوجيه الضربات القاتلة من رماحهم، تلك العملية التى تتطلب خبرة ودقة فى التصويب.

وحينما يتمكنون من غرس رماحهم فى رقبته يطلق «فرس البحر» صيحة قوية مدوية كالرعد تمزق هدوء الليل، ثم ما يلبث أن ينهار على الرمال ويموت، حينئذ يتجمع الصيادون حول هذا الحيوان فينشدون الأغانى التى تستمر لبعض الوقت... وبعد ذلك تربط الحبال حول أقدام «فرس البحر» لسحبه إلى المعسكر، مكان وجودهم.

وبعد ذلك يقفون إلى جانبه صامتين، وهم يشعرون بالقناعة التامة وراحة البال، ويتقدم أحدهم فيأخذ حفنة من وحل البحيرة ويضعها على الجزء السفلى من ذقن «فرس البحر»... ثم يعتلى رأس هذا الحيوان وهو يغنى ويغمس يديه فى الوحل، ويبدأ بتلطيخ ذراعيه حتى الكتفين. وبعد ذلك يبدأ الرجال فى سلخ جلد «فرس البحر» السميك من أقدامه الأمامية.

---

(١) قبيلة «المولو» تعتبر من أصغر القبائل فى إفريقيا، وتعيش على الشواطئ الجنوبية الشرقية لبحيرة «توركانا» بكينيا... ويبلغ عدد أفرادها ٣٥ شخصًا، وهم يشكلون فرقة للصيد تتكون من ثمانية أشخاص، منهم اثنان من المحاربين الشبان، أما بقية أفراد المجموعة فهم الرجال الكبار فى السن، ولديهم الخبرة فى حملات صيد فرس البحر.

ومع شروق الفجر، يبدأ الرجال بممارسة مهنة الجزارة، حيث يبدءون بتقطيع هذا الحيوان الضخم بدون أن يضيعوا أو يتلفوا شيئًا منه، حيث يقومون بصنع شرائح منه، ويقدمونها لصيادى السمك فى البحيرة الذين يتجمعون حولهم لمشاهدة هذا المنظر الملفت للانتباه، ولا سيما أن هؤلاء الصيادين لا يصطادون سوى الأسماك والتماسيح، أما صيد «فرس البحر» فقد تخصصت فيه قبيلة «المولو».

وفى اليوم التالى يأخذ كل رجل من هؤلاء الرجال الثمانية صرة من اللحم، ويعود بها إلى عائلته وأقاربه فى القرية.

* * *

* **قبيلة «الإفى»[1]:**

فى زائير تعيش قبيلة «الإفى» على الصيد كمصدر أساسى لرزقهم، وتسود بينهم نزعة العمل الجماعى، وبما أن حياتهم تتمحور حول الصيد، فإن حس الجماعة يتجلى فى هذه الممارسة حين يخرج الرجال فى مجموعات تضم حوالى تسعة صيادين، وتتيح قامة صياد «الإفى» له التربص بفريسته متخفيًا وسط الأعشاب والأشجار الكثيفة فى الأحراج الاستوائية.

ويتحلى الصياد ببرودة أعصاب تمكنه من الوقوف بدون حراك بانتظار وصول فريسته إلى مرمى قوسه، فيطلق سهمه باتجاه الطريدة التى تقاوم ألم الإصابة وتحاول الهرب، ولكن سهام الصيادين الآخرين تتربص بها لترديها، فى حين تحاصرها الكلاب حتى لا تبتعد كثيراً عن منطقتهم.

وتتعالى قهقهة الصيادين وصرخاتهم معلنة سقوط الطريدة التى غالبًا ما تكون تَيْسًا بريا أو غزالاً، فتُنقل إلى فسحة طبيعية وسط الأحراج الكثيفة، حيث تبدأ رقصة غريبة يعيد فيها كل صياد تمثيل دوره فى الإيقاع بالطريدة مطلقًا صرخات تشبه أنين حيوان جريح.

(١) هم ينتمون إلى الشعوب الإفريقية القصيرة القامة المنتشرة فى مناطق الأحراج الاستوائية.

ثم يتقدم أكبر الصيادين سنا من الطريدة ويبدأ بتقطيعها، ويعطى كل صياد حصته، فينال من أطلق السهم الأول القسم الأكبر الفخذين والكبد... ويتلقى صاحب الكلاب الرأس والكتف وإحدى القائمتين الأماميتين.. وينال من أطلق السهم المميت الكتف الآخر والقائمة الأمامية الثانية... ويتقاسم بقية الصيادين ما تبقى من الطريدة بالتساوى قبل أن يعودوا إلى مستقرهم، وقد لفوا حصصهم من لحم الطريدة بأوراق الشجر العريض[1].

* * *

* **قبيلة «الآباش».**

من عادات قبيلة «الآباش» ـ وهى إحدى قبائل الهنود فى أمريكا ـ أنه لكى تنتقل الفتاة عندهم من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الأنوثة الكاملة، وتدخل الطور الذى ستكون فيه امرأة ناضجة، عليها متى بلغت عامها الرابع عشر أن تمارس طقوسًا وشعائر قبلية مرهقة تستمر مدة أربعة أيام كاملة فى احتفال كبير عام يسمى «رقص شروق الشمس»، وهو حسب تقاليدهم شروق عمر هذه الفتاة التى ستصير امرأة ناضجة بعد قليل تتحمل مسئولية كبيرة، حيث ستكون أُما فى المستقبل.

فعندما تقترب الفتاة من عامها الرابع عشر تشعر بارتباك وخوف، حيث إنها قد أُخبرت منذ مدة من قبل بأن عليها متى اقتربت من بلوغ هذه السن أن تتهيأ نفسيا وجسديا وروحيا لتقبل طقوس وممارسات عنيفة، تستمر أربعة أيام كاملة، بعدها تستريح من هذا العناء وتصبح أمرأة قوية لا تضعف أمام المحن لآخر العمر.

ويستعد والداها لمقدم هذا اليوم، فيسألان الأقارب من ذوى الخبرة، خاصة المتقدمين منهم فى السن، الذين حضروا الكثير من هذه الاحتفالات، أن

(١) مجلة الشاهد، عدد أكتوبر ١٩٩٠ (بتصرف)

يساعدوهما بمعرفتهم الواسعة لهذه الأمور، لأنهما يرغبان أن يكون عيد رقص ابنتهما حافلاً قويا، مختلفًا عن رقص البنات الأُخريات.

كما يتم الاستعانة بعراف القبيلة فى اختيار ما يسمى بـ «العرابين»، وهما اللذان يقومان برعاية الفتاة خلال هذا الاحتفال الكبير.

وفى صباح يوم ما قبل الاحتفالات يُقام تحضير «رقص شروق الشمس» فتدخل «العرابة» لغرفة الفتاة، وتلبسها اللباس الخاص بالاحتفال، وتزودها بكل المعلومات والخبرات عن هذه الطقوس، وكل ما يلزمها لمواجهتها بشجاعة وقوة، ثم تغرز ريشة النسر ـ التى تُؤخذ من والديها ـ فى رأسها.

وهذا التقليد يساعد الفتاة على أن تحيا طويلاً إلى أن يتحول شعرها إلى اللون الرمادى ويشيب... ثم توضع قلادة عبارة عن قوقعة حيوان على مقدمة جبينها.. وهذه إشارة إلى أنه منذ هذا اليوم قد تحولت من طفلة إلى امرأة، وأنها صارت أُما لكل الشعب الآباشى.

ثم يدلك جسدها بقوة شديدة... وفى الليل يجلس الجميع لساعات طويلة حول نار كبيرة مشتعلة لمتابعة رقصات راقص النار الذى يمثل شخصية الروح الحامية التى سترعاها طوال مدة الاحتفال.

ثم يأتى يوم اختبار الثبات واحتمال المشاق، وفيه يبدأ الرجال بإنشاء الترانيم الدينية مع بدء بزوغ فجره، وتؤدى الصلوات للخالق العظيم رب السماء والكون... وبعدها تقوم «العرابة» بإخبار الفتاة بأن عليها أن تبدأ «رقص شروق الشمس» وهى جاثية على ركبتيها فى دثار مصنوع من جلد الغزال، على أن تكون دائما بمواجهة الشمس؛ لأن هذا يمثل وَضْعَ امرأة «الآباش» وهى تطحن حبوب القمح.

ثم بعد هذا يحين وقت الجرى السريع المرهق، بهدف عدم تمكن أى شخص شرير من ملاحقتها وإيذائها طوال حياتها..

ويلاحظ أن الفتاة وهى تجرى تكون من ورائها «العرابة» تجرى أيضاً.

وفى اليوم التالى يرش غبار الطلع للنبات المائى المسمى بـ «التيفا»، وهو عشب ينمو فى البرك ـ على رأس الفتاة، ويقوم بهذا العمل أكثر من مائة شخص وهم يتلون الصلوات بصوت خفيض، وهى تصلى أيضًا لربها الخالق العظيم.... ثم يطلب من الفتاة أن تنفخ فى فم الطفل الذى تحمله إحدى قريباتها لتبعد عنه الأرواح الشريرة.

ثم يبدأ الأب بصب السكر والحلوى وحبوب القمح فوق رأس الفتاة؛ وذلك ليحميها عندما تكبر وتشيخ.

وفى اليوم الذى يليه.. تبدأ «العرابة» بدهن الفتاة من قمة رأسها إلى أسفل حذائها المصنوع من جلد الغزال بدهان مصنوع من مزيج من غبار طلع نبات «التيفا»، ودقيق القمح، ومسحوق أحجار ملونة بأربعة ألوان، ويعنى هذا أن الفتاة قد مُنحت البركة والحماية من الشرور التى قد تأتى من الجهات الأربع. والأربعة رقم مهم جدا عند الآباش.

وأما عن الثوب المدهون فيمكن تنظيفه ثانية وإعادة ارتدائه للاعتزاز به؛ وذلك لأن الكثير من الناس عملوا على صنعه.

وفى النهاية تشكر الفتاة «العرابة» لأنها بذلت معها جهدًا كبيرًا بعد أن تخبرها بأنها كانت بنتًا قوية جدا طوال أيام هذا الاختبار القاسى، وأنها لم تبك قط مثلما كانت تفعل أكثر البنات حين يمررن بمثل هذا الاختبار[1].

* * *

(١) مجلة الفيصل فى عددها الصادر رقم «٩٤» (بتصرف).

• نظم وعادات غريبة لدى بعض القبائل البدائية :

من العادات الغريبة لدى قبائل «هنود الكواكيوتل» التى تعيش على الساحل الكندى للمحيط الهادى عادة التهادى بالتنازل عن ممتلكاتهم وتبديدها من أجل أفراد القبيلة، وذلك بهدف الاحتفاظ بمكانة مرموقة فى مجتمعهم، مما يجعلهم يتنافسون فى تلك العادة. . .

وتعد الأعياد الموسمية المعروفة لديهم بمهرجانات الشتاء «البوتلاش» فرصة عظيمة لأفراد القبائل لاستعراض ثرواتهم بالتنازل عنها كلها.

كذلك يعتبر التبادل المشترك الذى يمارسه سكان «جزر تروبرياند» فى المحيط الهادى قرب غينيا الجديدة من العادات التى يحرصون عليها، خصوصا بالنسبة للسلع الثمينة لديهم، كالخنازير، والزوارق، والفخار، والبطاطا، أو للأساور والعقود التى تحظى بتقدير أعظم لدى التجار، حيث تنتقل العقود إلى حلقة التبادل فى اتجاه عقرب الساعة. . . فى حين تنتقل الأساور فى الاتجاه العكسى، كما تحظى بعض الحلى المصنوعة من المحار بتقدير عظيم أكثر من أى شىء. ويعد الحصول على حلية من هذه الحلى الهدف الأسمى من التجارة، ولكن كل هذا كان يتم بدون مساومة عليها، ولا محل لاكتنازها، ولا سيما أن الفرصة متاحة لكل فرد أن يقتنى واحدة من هذه الأشياء بعض الوقت ثم يعطيها لغيره.

وتجدر الإشارة إلى أنه ما زالت بعض المجتمعات فى أمريكا الجنوبية وإفريقيا وآسيا لم تكتسب الطابع التجارى المتعارف عليه، حيث يعيش أفرادها ويعملون بدون تعاملات نقدية، كما لو كانوا جزءًا من أسرة تبادلية كبيرة[1].

فى قبائل غينيا الجديدة يعيش الرجل العادى منذ مولده مع الخوف من أعدائه، ومن مختلف الأمراض، والسحر الذى يتخذ مئات الأشكال.

ويؤمن بأن أرواح أسلافه التى تحيط به من كل جانب يجب إرضاؤها، خشية أن تجلب عليه المرض أو الموت!

ولكى تبقى أرواح الأسلاف راضية تقوم بعض القبائل ببناء «منازل للأرواح»، تكون كبيرة البناء مسقوفة، يبلغ ارتفاعه ارتفاع مبنى مكون من أربعة طوابق ويقوم هذا البناء على أعمدة ضخمة، وترتفع أرضيته عن الأرض ١٨٠ سنتيمترًا، وقد حُفرت على أعمدته الداخلية رسوم من الطيور والأشكال الغريبة، فى حين تتدلى من السقف أقنعة سحرية، وجماجم بشرية!

وتقضى التقاليد بأنه عندما يتم حفر أول حفرة لقوائم «منزل الأرواح» يجب أن يوضع فيها إنسان حى، ثم يلقى بالعمود الضخم فوقه!

وهناك بعض القبائل تعلق جماجم أسلافها فى أكياس من النافذة على جدران منازلها.

وفى قبيلة «الأزيرا» بغينيا الجديدة تنبذ الأرملة كل أدوات الزينة فيما عدا جمجمة زوجها المتوفى، والتى تتدلى من عنقها.

---

(١) الغرب والعالم ـ الجزء الثانى: كافين زايلى، ترجمة د. عبد الوهاب المسيرى (بتصرف).

هذا، ويستخدم آخرون جماجم أحبائهم كوسائد.

وفى هذه القبيلة يتعلم الصبية كيف يتحملون الألم بثبات... أما الفتيات فإن الحياة بالنسبة لهن أكثر سهولة، فالفتاة تعيش حتى الزواج حياة المرح والانطلاق... تصبغ وجهها، وتزين نفسها بالمحار والريش، وتنتظر أفضل عروض الزواج، ولا تفرض عليها إلا قيود جنسية قليلة، وهى تستطيع ابتداء من سن البلوغ أن توزع عواطفها بحرية، ولكن بمجرد أن تتزوج تصبح كادحة، تعمل فى البيت ما يتطلبه من مهام الطهى وخلافه، وخارجه فى أعمال الزراعة. ويُعَدُّ تعدد الزوجات أمرًا شائعًا ترحب الزوجة به؛ لأنه كلما زاد عدد زوجات الزوج قل عمل كل منهن.

وينظر إلى الزواج كحدث اقتصادى مهم، ولا سيما أن العروس يقدم لها العديد من الهدايا، من الخنازير، والأصداف، والفئوس، والرماح... وفى بعض الأحيان تُسْرَقُ العروس، أو تُؤْسَرُ فى قبيلة منافسة.

هذا، وتعد سرقة الفتيات ـ بالإضافة إلى سرقة الخنازير ـ من أهم أسباب معظم حروب الثأر بين القبائل[1].

ومن التقاليد المرعية لدى شعب «الأناغوتا»[2] التعبير الشعائرى عن الشعور المبهم نحو السلطة القائمة، إذ يحق للرجال الذين يؤهلون للمشيخة عندهم أن يتحدوا الشيوخ القدماء الذين يتمتعون بالقدرة الجسدية لمنازلتهم فى قتال بالهراوات، ويتم ذلك داخل حلقة من الشباب المؤهلين حديثاً، والذين يرقصون ببطء على دقات الطبول وأصوات الأبواق.

---

(١) مجلة المختار «ريدرز دايجست» عدد مارس ١٩٦٤ (بتصرف).

(٢) هى من الشعوب البدائية التى اهتم بدراستها علماء الأنثروبولوجيا.

هذا، ولا يسمح بضرب أى من المتصارعين فوق الجذع، وليس التحدى ضروريا، ولا الاستجابة له حتمية، لكن من يرغبون فى إتمامه تتاح لهم ـ من خلال هذه المرحلة الأخيرة من مراحل التأهيل ـ فرصة التفريج عن عداوتهم ضد أحد الشيوخ الكبار ممن قد يكونون أساءوا استخدام سلطتهم.

وقد يؤدى القتال أحيانًا إلى إصابات مؤلمة... وأحياناً إلى فضح الجبن والتبجح، لكن ذلك لا ينسحب على حياة الرجل بكاملها، بل على الموقف نفسه.

ومن الطقوس الخاصة عند شعب «الهوتنتوت» أنه عندما يقتل الفرد عدوا فى معركة، أو يذبح صيدًا كبير الحجم ـ فى مناسبات معينة، مثل حدوث حالة ولادة، أو عند البلوغ، أو فى غيرهما من مناسبات ـ يكون فى حالة تسمى «ناو»[1]. ويكون فى تلك الفترات معلقاً بين حالتيه، ويعتبر خطرًا على نفسه وعلى غيره من القبيلة؛ ولذلك يعزلونه ويضعونه تحت رقابة تامة تتصف بالمناعة من القبيلة، وبعد أن تمر مرحلة «الناو» تلك لا بد أن يمر الشخص بطقس التطهير، وأن يأكل من وليمة عامة يشارك فيها من هم فى وضعه، ثم يعيده المكلف بمراقبته إلى مجتمع القبيلة أثناء رقصة احتفالية، وبذلك يعود الشخص إلى حالته الطبيعية![2].

فى مرتفعات «التيبت» يتوسط المداوون فى تحديد مصير مرضاهم من خلال طقوس تحول الطبيب إلى وسيط بين «الآلهة» والإنسان[3].

---

(١) أى حالة الدناسة أو القلق أو الخطر.

(٢) البدائية: أشلى مونتاغيو، ترجمة الدكتور محمد عصفور (بتصرف).

(٣) إن الشعوب البدائية كانت ـ ولا تزال ـ تلجأ إلى السحر والشعوذة فى علاج الأمراض، فالنصوص الأوردية فى الهند القديمة تخبرنا عن الكثير من العلاجات السحرية والعقاقير العشبية، والمكائد التى تنصب لطرد الشياطين. =

وفى «سوازيلاند» بإفريقيا يصف المداوى ـ وغالبًا ما يكون امرأة متمرسة فى فنون الشعوذة ـ قرباناً أو أضحية حيوانية يقدمها المريض إلى الأرض عربون الامتنان، ويشكر الطبيعة على نعمة الحياة الكبيرة، بأن يعيد إليها دم الحيوان.

وكذلك يتقرب الكهنة الأفارقة من الآلهة، ويعرضون قوتهم بحمل الجمرات الملتهبة فى قبضاتهم العارية.

أما فى أعالى الإنديز فى «البيرو».. فيشخص المداوون الأمراض بقراءة أوراق الكوكا... وهذه الممارسة مقصورة على الأشخاص الذين نجوا من الصواعق والبرق، وفى ظل انعدام الفاصل الثابت بين الدينى والدنيوى لدى هذه المجتمعات، يصبح كل عمل يقوم به المداوى صلاة تؤديها الجماعة بأسرها، كما يصبح كل طقس من الطقوس شكلاً من طب جماعى وقائى.

هذا، وبالنسبة إلى بعض المجتمعات فى أنحاء العالم، لا يزال الكاهن والطبيب شخصًا واحدًا؛ إذْ أن هذه المجتمعات لا تفضل مطلقًا بين وضع الجسد وحالة الروح.

ويعتقد البعض أن المرض هو اختلال وفقدان توازن وتجل للقوى الخبيثة فى البدن ، والصحة هى حالة اتزان وتناغم، وهى فى أغلب الثقافات شىء مقدس!

* * *

= أما الصينيون الذين رأوا فى الإنسان مرآة للكون تحركه طاقة حيوية أطلقوا عليها تسمية «فى»، فقد اكتشفوا لقاح الجدرى قبل آلاف السنين من اكتشاف الأوربيين له، كما ظهرت الجراحة فى عهود قديمة، وكان العرب أول من أجروا جراحة جدية، وكان أبرعهم «ابن سينا» و «الرازى».

• نظم الزواج لدى بعض القبائل البدائية :

* فى قبائل «الوانيورا» تتخذ الفتيات عادة ـ عشاقًا لهن، وكثيرًا ما يقضين الليل كله عند هؤلاء العشاق، ولا يعدن إلى أسرهن إلاَّ فى الصباح، بدون أن يوجه إليهن أى لوم، أو يسمعن كلمة تأنيب.

* أما عشائر «الواديجو» فإن اكتشاف العريس أن عروسه لا تزال محتفظة ببكارتها يعد من الأمور التى تدعو إلى الخجل؛ لأنها فضيحة لكلا العروسين.

* وفى عشائر «الباكونجو» تتحدد قيمة الفتاة وتقاس مكانتها بحسب ما لديها من عشاق. . . ويعتبر العريس نفسه محظوظاً؛ لأن مثل هذه الفتاة قد فضلته على كل عشاقها!

* وفى قبائل «البارى» و«الكوناما» فى شرق إفريقيا لا تعتبر العلاقة الجنسية بين اثنين عملاً شائناً أو منافيا للأخلاق الحميدة.

وإذا حملت الفتاة من هذه العلاقة غير المشروعة فإن ذلك لا ينقص من قيمتها أو ينال من شرفها بين النساء، وبالتالى لا يوجد أى عقاب من أى نوع يوقع عليها أو على من زنى بها.

* وفى قبيلة «موندوجوموا»... فإن النساء ذوات القوة غير العادية والمصابات بالشبق لا يتورعن عن إشباع شهوتهن مع رجال مختلفين.

هذا، وتستعين الأنثى للدخول فى علاقات جنسية مع الذكر ـ بما لديها من مفاتن ومواهب لبلوغ مأربها.

والغريب فى الأمر أن رجال هذه القبيلة لا يقفون مكتوفى الأيدى أمام الحالات الشاذة التى يبلغ فيها شبق المرأة حدا غير عادى... وإنما يوقعون عليها عقاباً يلائم حالتها، وذلك بأن يسلموها إلى جماعة أخرى لكى يقوم رجالها كلهم باغتصابها.

* وفى جزر الملايو، ولدى كثير من العشائر فى الهند، لا يعد اتصال الرجال بالنساء غير المتزوجات خطيئة ولا إثما، بل يتاح اتصال الرجال بالنساء بدون قيد أو شرط... ففى عشائر «الونتال» بالهند مثلا جرت العادة على أن يعقد جميع الراغبين فى الزواج عقودهم مرة واحدة فى أيام معلومات، على أن يسبق هذه الأيام ستة أيام يباح فيها لجميع الرجال الاتصال بجميع النساء[1].

* فى عشائر «المأوريس» بنيوزيلندا الجديدة... تترك للفتيات قبل الزواج حرية ممارسة الجنس.

* وكذلك فى جزيرة «تونجا» يباح للمرأة غير المتزوجة أن تتخذ من العشاق أى عدد تشاء، ولكن يجب أن تكون معتدلة فى ممارساتها الجنسية، وإلاَّ أُوسِعَت لومًا من أفراد قبيلتها.

أما فى جزيرة «سان كريستوفر» والجزر المجاورة لها فَتُعْطَى الفتاة فرصة للاتصال الجنسى بمن تشاء من الفتيان، وذلك بعد بلوغها بمدة سنتين أو ثلاث

(١) غرائب النظم والتقاليد والعادات، د. على عبد الواحد وافى (بتصرف).

سنوات على الأكثر، وبعد ذلك يحظر عليها أى اتصال جنسى... ولذا فكثيرًا ما تنتهز الفتيات هذه المدة المحدودة ويحاولن الاتصال جنسيا بأكبر عدد ممكن من فتيان القرية.

* وفى جزر «بولينيزيا»... ينام الفتيان والفتيات معًا فى أماكن مملوكة على المشاع فى ظروف تسودها الحرية الجنسية الكاملة... ومع ذلك فقد لوحظ أن الفتيات نادرًا ما يحملن أثناء إقامتهن الطويلة مع الفتيان ولا يتم الزواج بين الفتى والفتاة إلا بعد أن يُظهرا ضيقهما بالإقامة مع الآخرين ويطلبا الاستقلال[1].

* أما عشائر «الإنجامى ناجوس» فيعد تقصير الضفائر إشارة إلى بكارة الفتاة التى تخجل منها الفتيات؛ ولذا يعملن على أن يأتين ما يبيح لهن إطالتها من اتصالات جنسية تقضى على بكارتهن.

ويحرص الرجل فى هذه العشائر على ألا تزف إليه عروسه إلاّ بعد أن تقيم الدليل القاطع على أنها ليست عقيماً، حيث لا تكون العفة والطهارة فضيلة لدى هذه العشائر إلا بعد الزواج!

* وفى عشائر الإسكيمو[2] يعتبر اتصال الرجل بامرأة متزوجة أو غير متزوجة من قبيل اللهو المباح!

* وفى قبائل «الشيلوك» الإفريقية يُفْرَضُ على من اغتصب فتاة أن يعطى والدها رأسًا من الماشية على سبيل التعويض.

أمَّا إذا حملت نتيجة للاعتداء فإن المعتدى يسلم والدها ثلاثة رءوس من الماشية.

---

(١) غرائب النظم والتقاليد والعادات: د. على عبد الواحد وافى (بتصرف).

(٢) يلاحظ أنه فى الإسكيمو لا تحيض النساء إلاَّ فى سن متأخرة، ولا يحضن إلا فى فصل الصيف عندما تظهر الشمس [المحيض بين إشارات القرآن وحقائق الطب] د. محمد عبد الله الشرقاوى ـ مجلة الوعى الإسلامى: مايو ١٩٨٥].

هذا، ويوجد نفس هذا العرف لدى قبائل «الدنكا»، وإن كان المعتدى يأخذ الطفل الذى حملت به المجنى عليها بعد أن تلده.

* أما قبائل «الأشولى» التى تعيش على حدود السودان الجنوبية، فإن اغتصاب رجل لفتاة لا يستوجب تقديم تعويض إلى أحد، اكتفاء بما سوف يلحق بأم الفتاة من مرض عضال نتيجة لتفريطها فى عفتها، وعندئذ يلتزم المعتدى بتقديم التعويض اللازم باعتبار أن ما أصاب الأم كان بسبب اعتدائه على ابنتها... وكذلك إذا حملت الفتاة فإن المعتدى يقدم تعويضًا أيضاً.

* وفى قبائل «الساموا» و«الفويتاك» و «الأوسيتاك» إذا عجز الرجل عن توفير الثمن المطلوب منه مقابل الحصول على العروس فإنه يلجأ إلى خطفها واغتصابها.

* وكذلك قبائل «الكالموك» حيث يخطف الرجل العروس إذا لم تكن هى ولا أهلها راغبين فى التسليم برغباته.. ولكن إذا أقامت الفتاة المخطوفة فى خيمته فيضطر أبوها إلى الموافقة على زواجه منها.

* وفى قبائل «الهوس» فى البنغال كانوا يمارسون أسلوب الزواج بالخطف والاغتصاب... إذ يخطف مجموعة من الشبان الفتاة برغم المقاومة التى قد تبديها، سواء أكانت هذه المقاومة حقيقية أم زائفة، وفى هذه الحالة يكون ثمن العروس موضع تقدير فيما بعد.

* وفى جزر «فيجى» وكثير من قبائل البرازيل يمارسون هذه الطريقة أيضًا فى الزواج، حيث يجد كثير من الشباب أن خطف الفتاة واغتصابها هى الطريقة الوحيدة المثلى للزواج بدون أن يتحملوا أى أعباء مادية[1].

---

(١) قصة الزواج: إدوارد وسترمارك، ترجمة عبد المنعم الزيادى (بتصرف).

وفى بعض القبائل الأخرى تسود معتقدات غريبة تشجع على خطف الرجل للمرأة. فالرجل الذى يغتصب فتاة لا بد أن يصيبه داء عضال، إلا إذا خطفها وهرب بها إلى قبيلة أخرى تفرض عليهما الحماية، حيث يعيشان معًا كزوجين.

* عند همج أستراليا لا بد من فض بكارة الفتاة بمجرد ظهور أول طمث لها. . . . ولكى تكون امرأة محترمة لا بد أن يتصل بها بعد ذلك رجل أو اثنان قبل أن تتزوج، وذلك لكيلا يتشاءم الزوج من رؤية الدم المسفوح.

وعند أهالى جزر «سلبيز» يقوم والد الفتاة نفسه بهذه المهمة أو يقوم بها رجال محترمون.

* ونظام الزواج بين قبائل «همج غانا الجديدة» يقضى بأن يختلط الشاب بالفتاة قبل الزواج عدة ليال، فإن لم ينسجما أُعيدت التجربة مع خطيب ثان، فثالث، وهكذا حتى يتم الاتفاق والانسجام.

ومن نظم الزواج بين قبائل الهمج أن تحدث معركة مزاحية بين أهل العروسين، يمثل فيها العريس خطف الفتاة، ويمثل أهل العروس المقاومة. . ثم يتم التسليم.

* أبسط طقوس الزواج وأقلها تعقيدًا تلك الطقوس التى تمارسها قبيلة «نيجريتو» فى جنوب المحيط الهادى. . . ففى تلك الجزيرة يذهب الخطيبان إلى عمدة القرية فيمسك برأسيهما، ويدق إحداهما بالأخرى، وبهذا يتم الزواج!

*** سكان صحاري أستراليا:**

وفى أستراليا ـ أيضا ـ لا يزال بعض سكان الصحارى يعيشون على صيد الحيوانات البرية بالسهام وآلات الصيد البدائية، وعلى جمع الجذور والبصيلات الصالحة للأكل.

ولهؤلاء السكان عقائد غريبة، فهم يعتقدون أن كل قبيلة قد انحدرت من نبتة معينة أو حيوان معين، ومن ثم يجب حماية هذه النبتة أو ذاك الحيوان، بأداء طقوس معينة! والأغرب من ذلك أن هؤلاء السكان يعيشون عُراة، فقد تكيفت أجسادهم لتتحمل الحر والبرد. أما منازلهم فمن العصى والأعشاب. وأهم ما يتميزون به أنهم لا يكفون عند الحركة، لا سيما مع نزول المطر الذى يعقبه نمو الأعشاب الضرورية لمواشيهم. وبالرغم من أن حياة التنقل صعبة فى البيئة التى يعيشون فيها فإنهم عادة ما يعتزون بقدرتهم على ذلك.

وهم يفضلون أنفسهم على سكان المدن الذين يضطرون للتعامل معهم مقابل اللحوم واللبن والجلود وغيرها، ويحصلون على الحبوب والضروريات الأخرى.

* * *

* **الإسكيمو:**

يعتبر «الإسكيمو» فى القطب الشمالى سكان صحراء أيضاً، ففى الشتاء البارد القارس لا يبقى منهم إلا القليل... أما فى القطب الجنوبى فلا يبقى أحد.

ويعتمد «الإسكيمو» فى غذائهم على حيوانات البحر، وقد يمكثون أياماً عند حفرة فى كتلة ثلجية انتظاراً لحيوان فقمة قد يخرج منها... عندها يطعنون الحيوان ويجرونه ليستفيدوا منه فى توفيره لغذائهم، فضلاً عن استخدام دهنه للإضاءة والتدفئة.

كذلك يحصلون على غذائهم من قطعان غزال الرنة، ومن ثور المسك، وبالإضافة إلى ذلك توفر هذه الحيوانات لهم الألبسة من جلودها.

obeikandl.com

وجدير بالإشارة أن الإسكيمو يبنون منازلهم من الحجارة والأخشاب والعظام والجلود، أما الأكواخ المبنية من الثلج فيستخدمونها فى حالات السفر فقط. والغريب أنه برغم أن تلك الأكواخ مبنية من الثلج، فإنها دافئة بالداخل، حتى إن الإسكيمو ينزعون فراءهم داخلها!!

* * *

* **الأطفال الذئاب:**

وهم يوجدون فى المناطق التى تكثر بها الغابات... والطفل الذئب هو طفل بشرى، ولكنه يمشى على يديه وقدميه معًا.

وقد نشر أحد كبار العلماء أخيرًا بحثاً ضمَّنه أن الأوصاف المبالغ فيها التى تُنسب لأمثال هؤلاء الأطفال تنطبق على لفيف منهم مصابين بمرض عقلى يحفزهم على الابتعاد عن العالم.

ومن أعراض هذا المرض الصراخ والعويل، والزحف على اليدين والساقين، واللجوء إلى العضِّ عند الغضب، وهم يفضلون الاختفاء فى «كهف» أثناء النهار يصنعونه من البطاطين. وفى الليل يتجولون فى الطرقات والأماكن المهجورة. وعلى الرغم من أنه لم يعرف سبب هذا المرض، فالغالب أنه نتيجة الشعور بكراهية البيئة البشرية، مع حساسية مرهفة للغاية.

* **الأقزام:**

هم أشخاص أقوياء البنية، مفتولو العضلات، عريضو الصدور، شداد الأذرع، ضخام الأنوف، تبلغ قامة الواحد منهم نحو أربع أقدام... ولا يلبسون ثيابًا على الإطلاق من أى نوع كان، ولا يسترون أى جزء من أجسامهم... ولا يطهون طعامهم.

وللأقزام مهارة خاصة فى صيد الفيلة، أضخم الحيوانات، وذلك بطعنها بحراب حادة... تبلغ شفرة هذه الحراب نحو خمسين سنتيمتراً طولا، وسبعة سنتيمترات ونصف عرضاً، وتنتهى قبضتها بثقل من الحديد المدبب.

ويفاجئ الأقزام الفيل وقت القيلولة وهو مستغرق فى النوم ثم يغرسون حرابهم من غير جلبة بحيث تغوص نهايتها المثقلة بالحديد المدبب فى الأرض، وتتجه شفراتها بانحراف نحو الفيل، وعلى بُعد عشرة أمتار منه، وفى صف واحد مستقيم..

ثم يتسللون نحو فريستهم مصطفين على يمين الحراب وعلى يسارها وخناجرهم مستلة فى أيديهم... وفى لمح البصر يضرب أحدهم كفا على كف ويزعق زعيقًا منكرًا، فيهب الفيل من غفلته وهو لا يعى شيئًا عمَّا نُصب له من الشراك، وتعوقه الحراب المنصوبة فيضطرب ويختل توازنه، وفى هذه اللحظة يطبق عليه الأقزام من اليمين واليسار بخناجرهم فيفتكون به، وقلما ينجو من مثل هذه المعركة فيل.

* **الغجر:**

قوم لا وطن لهم فى هذه الدنيا، لكنهم يتصرفون وكأن الدنيا[1] كلها لهم، لكن الذى يؤكد أنهم قدموا من وطن واحد هى لغتهم[2] التى ما زالوا يتحدثون بها، فالغجرى المقيم فى أوربا يمكنه التحدث والتفاهم مع زميله المقيم فى الدول العربية وإفريقيا.

ويتميز الغجر بالبراعة والمهارة فى تقديم الخدمات التى يتنكف الناس عادة عن تقديمها، مثل إصلاح الأوانى المنزلية، ومسح الأحذية، وجمع

(١) تشير الروايات التاريخية ـ بدون تأكيد ـ أنهم قَدِمُوا من شمالى الهند والمناطق المجاورة لها، فلا أحد من الباحثين يدرى بالتحديد من أين جاءوا. ويسجل التاريخ العربى أنهم قاموا بثورة مشهورة فى البصرة أيام الحكم الأموى.

(٢) لغتهم تسمى «العصفورى» وهى تضم خليطاً من الكلمات الفارسية والهندية.

القمامة، والرقص فى الأفراح، وإقامة الحفلات[1]. . وبالإضافة إلى ذلك يتسولون، أو كما يقول البعض: يسرقون، أو يتاجرون فى المسروقات.

والنساء عندهم أنشط من الرجال فى العمل، فالرجل له احترامه وليس عليه أن يعمل إلا إذا اضطر إلى ذلك.

وتقوم النساء بالغناء فى الحفلات، وبالتسول نهارًا، أو خدمة البيوت، والرجل غالبًا ما ينتظر فى البيت.

أما عن عاداتهم فى الزواج فالبنت تتزوج عند بلوغها سن الخامسة عشرة على الطريقة الإسلامية.

وهم لا يتزوجون من غرباء. . . والمهر يبدأ عندهم من مائة دينار إلى ستمائة دينار، ولا يقدم العريس ذهبًا أو فضة أو أثاثاً، فهذه أشياء لا يتعاملون بها ولا يحتاجون إليها.

كل ما فى الأمر أنهم يقيمون وليمة يحضرها كل الموجودين فى المنطقة، ولا تخلو ليلة العرس من الرقص والغناء، ولا سيما أنهم أصحاب هذه المهنة أصلا[2].

* * *

(١) فى البلاد العربية برع بعضهم فى مجال الموسيقى والغناء بالذات ممن تجنسوا بجنسيات عربية.
(٢) مجلة الشرق الأوسط، فى عددها الصادر فى ٩/٩/١٩٩٢ (بتصرف).

• أكل لحوم البشر.. عادة لها أسباب ودوافع:

انتشرت هذه العادة لدى عدد كبير من الشعوب البدائية وغيرها، وخاصة فى جنوب إفريقيا وغربها ووسطها، ولدى طائفة من عشائر السكان الأصليين لأستراليا، وأمريكا الوسطى والجنوبية والشمالية، وطائفة من عشائر السكان الأصليين لأرخبيل الملايو، وماليزيا، وإندونيسيا، وبعض القبائل فى آسيا.

وقد اختلفت طرق ومظاهر أكل لحوم البشر باختلاف تلك الشعوب: ففى بعضها كان يؤكل جميع أجزاء الجسم البشرى، ما عدا العظام... فى حين كان آخرون لا يأكلون إلا أجزاءً خاصة من الجسم، كالقلب، والكبد، والكليتين.

وفى بعضها كان يقتصر على أكل جثث المتوفين والمحتضرين من الناس، وكان آخرون يفترسون الأحياء ويأكلون لحومهم.

وفى بعضها كان يقتصر على أكل جنس الذكور، أو جنس الإناث، أو على أكل الآدمى فى مرحلة خاصة من مراحل العمر، كالطفولة أو الشيخوخة... وكان آخرون لا يفرقون بين جنس وجنس آخر، أو بين مرحلة وأخرى.

وفى بعضها كان لا يسمح بأكل لحوم البشر إلا للذكور، أما الإناث فكان هذا النوع من الطعام محرمًا عليهم إلا فى حالات خاصة حددتها

التقاليد، ولكن عند معظم آكلى لحوم البشر كان ذلك مباحًا للجنسين على السواء فى مختلف مراحل العمر.

وفى بعضها كان يقتصر على أكل لحوم الأعداء وأسْرى الحرب والأجانب عن القبيلة، وكان آخرون يقتصرون على أكل لحوم الأقرباء، ومن أظهر أمثلتهم عشائر البنغال، وطائفة من قبائل السكان الأصليين لأستراليا. وفى عشائر «الديبرى» الأسترالية كان لا يؤكل كذلك إلا لحوم المتوفين من الأقرباء، ولكن بحسب نظام خاص يحدد قرابة الآكل من المأكول، فكانت الأمهات يأكلن لحوم أولادهن، والأولاد يأكلون لحوم أمهاتهم، ويأكل الزوج وأخو الزوجة كلاهما الآخر عقب وفاته، وتأكل الزوجة وأخت الزوج كلتاهما الأخرى.. وغير ذلك من قواعد بالنسبة لأكل الأرقاب من الأعمام والأخوال وغيرهم[1].

وقد نشأت هذه العادة وتطورت نتيجة لعدم وجود غذاء حيوانى آخر، أو لحدوث قحط أو مجاعة، حيث كانوا يقتلون نساءهم وأولادهم ويأكلون لحومهم... ثم استمرت تلك العادة حتى بعد انتهاء فترات القحط والمجاعات، حتى صار ذلك أمرا عاديًا، بل أخذ كثير من هؤلاء الأفراد يجدون لذة فى هذا النوع من اللحوم، وخصوصًا لحوم الأطفال التى يعتبرونها من أزكى أنواع الطعام عند كثير منهم... ومن ثم أصبحت تؤكل لِلَّذَة، لا لدرء ضرر المجاعة، بل إن كثيرًا من أغنياء القوم الذين من الميسور لَديهم الحصول على أطعمة أخرى كانوا يؤثرون اللحم البشرى، ويعتبرونه من مظاهر الترف والأبهة... وكانوا يستأجرون بعض المجرمين ليصيدوا لهم الأطفال والشبان لتزدان موائدهم بلحومهم..

وكان أرقى ما يقيمونه من مآدب هى المآدب التى يقدمون فيها هذا الصنف الفاخر من اللحوم.

---

(١) غرائب النظم والعادات والتقاليد: د. على عبد الواحد وافى (بتصرف).

ولكنَّ شعوبًا أخرى كثيرة ظهر لديها أكل لحوم البشر فى صورة عادة أصيلة غير مرتبطة بقحط أو مجاعة أو ندرة فى الغذاء الحيوانى، حيث كان لحم البشر عندهم فى عداد الحيوانات مأكولة اللحم، بل كان عند كثير منهم من أزكى هذه الحيوانات طعامًا، وألذها مذاقًا.

وفى إفريقيا تنتشر كذلك هذه العادة فى مناطق غنية كل الغنى بثرواتها الحيوانية والنباتية، مثال قبائل «البنغالا» فى أعالى الكونغو، فهم لا يزالون يشنون الغارات على القبائل المجاورة لهم للحصول على أسرى يأكلون لحومهم، مع أن منطقتهم من أغنى مناطق العالم فى النبات والحيوان والأسماك.

وقبائل «الهوتنتوت» بجنوب إفريقيا لا تكتفى بخطف الآدميين من القبائل المجاورة لأكل لحومهم، بل كثيرًا ما يقع التخاطف بينهم هم أنفسهم لهذا الغرض نفسه، على الرغم من سعة مناطقهم وغناها بالثروة الحيوانية وخصوبة أرضها.

وهناك من آكلى لحوم البشر باعثهم على ذلك هو مجرد الرغبة فى التَّشَفِّى والانتقام، والأخذ بالثأر من القاتل... فقبائل «التيبى» والسكان الأصليون لجزر سليمان بماليزيا لا يأكلون إلا لحوم خصومهم، ولا يفعلون ذلك إلا بقصد الإمعان فى إذلالهم لهم والتنكيل بهم؛ إذ يرون أن أكل لحم الخصم هو أقصى ما يمكن فعله لإذلاله والتنكيل به وإهانته[1].

وعند بعض الشعوب كان يعتبر أكل لحم البشر عقوبة توقع على مرتكبى بعض الجرائم الخطيرة، فكان فى نظرها طريقة من طرق الإعدام، كالشنق،

(١) مثل هذا كان يحدث عند العرب فى الجاهليه وصدر الإسلام، فقد أكلت هند امرأة أبى سفيان وأم معاوية كبد حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استشهد فى غزوة أحد انتقامًا لمن قتل من أهلها فى غزوة بدر.

أو الضرب بالرصاص، وما إلى ذلك من وسائل الإعدام الأخرى. فلم يكن المأكول لحومهم من أسرى الأعداء، ولا من قتلى الحروب، وإنما كانوا من مرتكبى بعض الجرائم الخطيرة كالقتل وغيره، حيث تقضى التقاليد بأكل لحم المجرمين، ويعهد بذلك لأقربائهم.

وباعث أكل لحوم البشر عند قبائل أخرى كقبائل «البوتوكودو» هو مجرد الرغبة فى إضعاف روح الميت، وجعلها عاجزة عن إحداث ضرر أو أذًى بالأحياء.

وقد جرت العادة عند بعض القبائل أنه عندما يقتلون عدوا لهم يأكلون كليتيه؛ لاعتقادهم أنهما مركز القوة والحياة.

وعند قبائل أخرى يُشرب دم الأعداء، وتُؤكل قلوبهم، ويحتفظ للرؤساء بعيونهم اليسرى؛ لاعتقادهم أن الدماء والقلوب والعيون اليسرى هى مقر القوة والجرأة والحياة، وأن أكلها يجعل أرواح الأعداء عاجزة عن أن تلحق أى ضرر بالأحياء.

وعند قبائل أخرى يكون الباعث على أكل جسم العدو أو جزء منه هو رغبة الآكل فى أن تنتقل إليه صفات المأكول جميعها، أو القوى التى يعتقد أنها كامنة فى بعض أجزائه. فقبائل «الشومشون» من الهنود الحمر كانت تعتقد أن شجاعة العدو وجرأته تنتقلان إلى آكل لحمه.

وقد جرت العادة عند بعض عشائر الهنود الحمر «بأمريكا الشمالية» عندما يعجبون بشجاعة أحد أعدائهم فى القتال أن يحرصوا على أسره وقتله، وانتزاع قلبه وتقطيعه إربًا صغيرة؛ لتوزع على شبابهم وفتيانهم ليطعموها، حتى تنتقل إليهم صفاته المميزة[1].

(١) الهنود الحمر: د. على عبد الواحد وافى (بتصرف).

ويعتقد سكان «ساحل العبيد» بغرب إفريقيا أن القلب موطن الحكمة والشجاعة والذكاء معًا؛ ولذلك يحرصون على أكل قلوب من يقع أسيرًا فى أيديهم.

وجرت العادة فى عشائر «الكينبوندا» فى جنوب غرب إفريقيا أنه عندما يُتَوَّج ملك جديد أن يختار من بين الأسرى أكثرهم شجاعة فيقتل ويقطع جسده، ويطعم منه الملك الجديد وأفراد أسرته؛ لتنتقل إليهم صفاته، ويتسم العهد الجديد بقوة الإقدام والظفر على الأعداء.

وفى بعض عشائر أستراليا الوسطى يأكل العجائز من الرجال والنساء لحوم الأطفال الصغار اعتقادًا منهم أن ذلك ينقل إليهم نضارة ضحاياهم، ويعيد إليهم شيئًا من شبابهم.

وفى عشائر أخرى من هذه المنطقة نفسها تذبح البنت؛ ليُطْعَم منها أخوها إذا انتابه هزال أوضعف؛ لتنتقل إليه حالتها الصحية السليمة ويشفى من علته.

وعند قبائل أخرى يكون الباعث على أكل اللحم البشرى هو انتقال البركة التى يتمتع بها الضحية لآكلها.

وعند السكان الأصليين لفلوريدا بأمريكا الشمالية لا يؤكل لحم البشر إلاَّ فى مناسبات تقديم القرابين من الأضحيات البشرية التى تقدم للآلهة... وتؤكل من كل أضحية بشرية الأجزاء التى انبثق منها الدم.

وقد جرت العادة لدى السكان الأصليين «لنيكارجوا» بأمريكا الوسطى أن توزع الأضحية البشرية التى تقدم إلى الآلهة بنظام خاص على طبقات العامة والخاصة ليطعموا منها، فيعطى قلبها لكبار رجال الدين، وأطرافها للملك، وفخذاها لمن أسرها.. وأمعاؤها لمن يدقون طبول الحرب، ويفرق ما بقى منها على طبقات الشعب الأخرى.

وكان يعتقد أن أكل لحم الإنسان أو شرب دمه يحقق فوائد روحية أو طبية للآكل أو الشارب: فعشائر «البنكيين» بماليزيا كانوا يعتقدون أن ذلك يزود الآكل أو الشارب بقوى وخصائص لا تقل كثيرًا عن قوى الآلهة وخصائصهم.

وفى أستراليا.. كان يعتقد أن السحرة والأطباء قد اكتسبوا القدرة على السحر وشفاء المرضى من أكلهم للحوم البشر.

وقد جرت العادة لدى بعض العشائر أن يحفظ الدم البشرى لتناوله فى جرعات للتقوية والشفاء من بعض الأمراض.

وفى الصين القديمة كان الناس يأكلون قلوب المحكوم عليهم بالإعدام وأكبادهم، ويشربون دماءهم، معتقدين أن ذلك يفيدهم فى تقوية أجسامهم وسلامة صحتهم... فكان يجمع الدم المنبثق من المحكوم عليه بالإعدام عندما تقطع رأسه، ويغمر فى دمه بعض أنواع النخاع، ويُباع هذا المزيج الذى يطلقون عليه اسم «الخبز الدموى».. على أنه دواء للمصابين بفقر الدم «الأنيميا».

ومن بين آكلى لحوم البشر من يكون باعثه شدة العطف على الشخص والشفقة عليه، والتفانى فى حبه، والحرص على أن يمتزج جسمه بجسم الآكل، وأن يتخذ مقره الأخير فى جوفه وأحشائه، فلا يذهب شىء منه إلى التراب: فقبائل «البريرى» الأسترالية تعتقد أنه إذا لم يؤكل المتوفون من الأقرباء، فإن أرواحهم لا يستقر لها قرار، ولا تنعم بهدوء، وتصبح مصدر شر مستطير للعشيرة.

وعند عشائر «البوتوكودوس» تأكل الأمهات المتوفين من أولادهم بدافع من العطف والحنان.

وتعتقد عشائر «الميورونا» أنه أكرم لجثة القريب أن يأكلها قريبه من أن تترك طعامًا للدود والحشرات.

وعشائر «الباتاك» بسومطره يعتقدون أنهم إذ يأكلون العجائز وذوى العاهات من أقربائهم لا يفعلون ذلك لإشباع نهمهم الغذائى، وإنما يفعلونه رحمة بهؤلاء وإشفاقًا عليهم.

ومما هو جدير بالذكر أن عادة أكل لحوم البشر لا تستلزم التوحش أو قسوة الطبع: فقد لاحظ الباحثون[1] أن معظم الشعوب التى تمارس أكل لحوم البشر شعوب سوية، تمتاز بالوداعة، ولين الخُلُق، واحترام النظام الاجتماعى، بل لوحظ أن انتشار هذه العادة عند البدائيين الذين وصلوا إلى مستوى لا بأس به من الثقافة والنظام أوسع من انتشارها عند العشائر الممعنة فى البدائية والبعد عن أسباب الحضارة، مثل عشائر «الباتاك» بسومطرة، التى تأصل فيها أكل لحوم البشر، مع أنها قد وصلت فى سلم الحضارة إلى درجة جعلتها تخترع حروفاً أبجدية لتدون بها أفكارها، متأثرة فى ذلك بحضارة جيرانها الهنود. وفى ذلك يقول الباحث «شاليه»: «إن آكل لحم البشر ليس إنسانًا متوحشًا مجردًا من طبيعته الإنسانية، بل إنه إنسان عادى، بل قد يكون رحيمًا دمث الأخلاق، ولكنه يعد أخاه الإنسان فى جملة الحيوانات مأكولة اللحم، بل يفضل أحياناً لحم الإنسان على لحم غيره من الحيوان»[2].

ويذكر «شاليه» قصة رُويت له جرت حوادثها فى مدينة من أشهر مدن إفريقيا الوسطى، وهى «برازافيل» عاصمة الكونغو، ولم يكن أبطالها من متوحشى هذه القارة، بل كانوا جنودًا إفريقيين فى الجيش الفرنسى، حصلوا على حظ وافر من الحضارة والثقافة... وملخص هذه القصة أن هؤلاء الجنود قد حملوا يومًا إلى أحد جراحى الجيش زنجيا قد أُصيب منذ أيام فى فخذه بجرح عميق أُهمل علاجه حتى سرى فيه التسمم وأنتنت رائحته. ولم

(١) غرائب النظم والتقاليد والعادات: د. على عبد والواحد وافى (بتصرف).

(٢) الكونغو الفرنسية: فاليسين شاليه.

Le Congo Fransais: Félicien challaye

يجد الجراح وسيلة لإنقاذ حياته إلا بتر فخذه، وبعد أن فرغ من عمليته طلب إليه الجنود أن يعطيهم الفخذ المبتورة ليأكلوها... فرفض الجراح لعدم صلاحيتها للأكل، فضلاً عن أن رائحتها منتنة كريهة، فأجابوه بأنه لا أثر لرائحتها فى مدى صلاحيتها للأكل؛ لأنه لا تؤكل رائحة اللحم، وإنما يؤكل اللحم نفسه، وقد حاول عبثاً أن يثنيهم عن رغبتهم، ولما رأى منهم إصراراً على ما يريدون لم يسعه إلا أن يغمرها أمامهم بسائل يعرفون أنه سام يقتل لساعته[1].

* * *

(١) المرجع السابق.

obeikandl.com